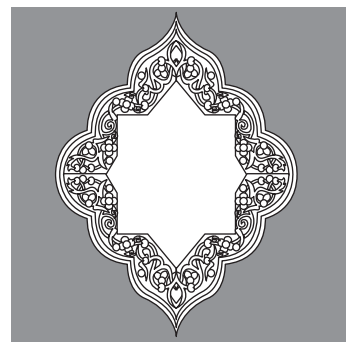

مشكلة تلوث البيئة وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

د/ إبراهيم رمضان إبراهيم عطايا
أستاذ الفقه المساعد بجامعة الأزهر
والمعار بجامعة الطائف في المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي خلق فسوى، والذي قدر فهدى، أحمده -سبحانه- الذي أكرم بني آدم وفضَّلهم، ورزقهم من الطيبات، وأصلي وأسلم على الهادي البشير، والسراج المنير، أوضح للبشرية طريق الهداية والصلاح في معاشهم ومعادهم، فما ترك خيرًا إلا ودل أمته عليه، ولا شرًّا إلا وحذرها منه، وما توفي خاتم النبيين ﷺ إلا ودين الله كامل، ونعمته تامة على العالمين.

وبعد:

فقد خلق الله -عز وجل- الإنسان وهيَّأ له أسباب الحياة في الدنيا، ومهد له أسباب العيش فيها، وجعل له من كل شيء سببًا، وقدر له في الأرض ما يقيم حياته ويصونه، ولم يترك الإسلام شاردة ولا واردة إلا كان له فيها تشريع وتقنين، وأمر ونهي، وتحذير وتوجيه.

وإذا تأملنا في البيئة بمدلولها الشامل لوجدناها قد حظيت بقدر عظيم من الاهتمام، فمن أهم عناصرها الإنسان الذي سخر له بقية العناصر والمخلوقات، ومنحه التملك وعمارة الأرض والاستخلاف فيها كما قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾[1]

(١) البقرة الآية: ٣٠.

وهـذا الاسـتخلاف في الأرض لعمارتهـا والقيـام باسـتثمارها واسـتغلال مصالحها كما قـال سـبحانه: ﴿ هُوَ أَنْشَـأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْـتَعْمَرَكُمْ فِيهَـا ﴾[1]، أي اسـتخلفكم فيهـا بالنعم الظاهـرة والباطنـة ومكنكـم في الأرض تبنـون، وتغرسـون، وتزرعون، وتحرثون ما شـئتم، وتنتفعون بمنافعها، وتسـتغلون مصالحها[2].

وأخـبر سـبحانه أيضًـا أن هـذا الاسـتخلاف إنـما هو مـن باب الابتلاء والامتحان ليتميز به من يُحسن التّصرف في هذه الخلافة ممـن يسيء فيها، قـال تعـالى: ﴿ وَهُـوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَـعَ بَعْضَكُـمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِى مَا آتَاكُمْ ﴾[3]، وقال -عز وجـل-: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِى الأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾[4].

ولقد أسـاء بعـض بني البشر على مـر العصور فهـم حقيقة هذه الخلافة، فلم يراعوا حقها بل أفسـدوا في الأرض فسـادًا معنويًّا بالشرك والمعاصي، وفسادًا حسيًّا بإهلاك الحرث والنسل، ولقد تطـور هذا الفهم السـيئ بسرعة فائقة في هـذا العصر حتى أخذ الإنسـان يفسـد بعـض ما حوله ممـا أودعـه الله في هـذا الكون، إما لسـوء تعامله مـع باقي محتويات البيئة، وإما لمسـايرته للثورة الصناعيـة التـي تتنامـى بفضـل التطـور السريـع الذي شـهدته البشرية في القرن الحادي والعشرين وما تحدثه من مخلفات، وآثار تُؤثـر سـلبًا على البيئة، فضلًا عن السـباق في مضـمار الصناعات العسكرية، والأسـلحة الكيماوية، والمفاعلات النووية، وغيرها مما تدعـو إليه ضرورة تلبية الحاجات المتزايدة للملايين المتكاثرة من سكان المعمورة.

لهذه الأسـباب دق العقلاء ناقوس الخطر لما أصاب توازن الحياة مـن خلـل خطير، يهـدد الحيـاة والأحياء عـلى كوكبنـا الصغير، فارتفعت النـداءات، وعقـدت المؤتمرات، وكثرت الدراسـات والكتابـات من أجل حمايـة البيئة والعناية بهـا والمحافظة عليها، وأصبـح هـذا الموضـوع بحـق يشـغل الـرأي العالمي عـلى كافة المستويات.

ولما كانت المحافظة على البيئة داخلة في مقاصد الشريعة الخمسـة وهـي: حفظ الدين والنفس والنسـل والعقـل والمال أصبح من المسـلم بـه لدى كل مـن له خـبرة بالفقه الإسـلامي واطلع على مصـادره وقواعده الفقهيـة الكلية وفروعه أن الفقه الإسـلامي لـه صلة وطيـدة بالبيئة تجعلـه صالحًا لمواجهة مشـاكلها المتعددة والمتطورة.

ولأجل ذلك رغبت أن يكون موضوع هذا البحث تحت عنوان: «**مشكلة تلوث البيئة وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي**».

ويمكـن إيجاز أهم الأسـباب التي دفعتني لاختيـار هذا الموضع فيما يلي:

١) أن موضوع البيئة من الموضوعات المعاصرة المهمة التي تتجه الأنظـار لعلاج مشـكلاتها والعناية بها، فبحث مسـائل وقضايا البيئة فيه معايشـة للعصر؛ لارتباطه وتداخله في كثير من شؤون حياة الناس اليوم.

٢) أن مشـكلة تلـوث البيئة وكيفية مواجهتها من المشـاكل التي باتـت تؤرق العقلاء والحريصين على سـلامة الحيـاة على كوكبنا الأرضي.

٣) أن العلماء والباحثين مختلفون إزاء أصل هذه المشـكلة «قضية تلـوث البيئـة» بـين مـبرر للحال يجعلـه أمـرًا واقعًـا، وضرورة تقتضيهـا سـنة التطـور وطبيعة الحيـاة، وبين ميـال إلى الانتصار للطبيعة وتوقيف جشع الإنسان في الكسب والتصنيع والإنتاج، وبين متوسـط بينهـما بما يحقق المصلحة البشريـة في الأمد البعيد، ولا يعيـق منافعـه الآنية وفوائـده العاجلة، وذلـك بالحفاظ على التوازن البيئي، وهذا الاتجاه وإبرازه هو من أهم أهداف البحث.

منهج البحث:

أولًا: اجتهدت في جمع معلومات البيئة والتعريف بالمصطلحات البيئيـة، ومعرفـة العنصر البيئـي وما يحدث له مـن ملوثات، ثم إيجاد الحل الفقهي لمشكلة تلوث هذا العنصر.

(١) هود الآية: ٦١.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، المؤلف عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق ط الأولى مؤسسة الرسالة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

(٣) هود الآية: ١٦٥.

(٤) يونس الآية: ١٤.

ثانيًا: بيان موضع الاتفاق بين الفقهاء في مواجهة مشكلة تلوث العنصر البيئي، وتوثيق الاتفاق من مظانه المعتمدة.

ثالثًا: وضع هوامش للبحث وذكرت فيها:

أ- تخريج الأحاديث والآثار من مصادرها الأصيلة، والحكم عليها بحسب الحاجة والإمكان.

ب- الحرص على توثيق المعلومات الواردة في البحث من كتب أهل الاختصاص.

رابعًا: حرصت على إتباع البحث بفهرس المراجع والموضوعات، للحاجة إليه واكتفيت به تجنبًا للإطالة بذكر بقية الفهارس الفنية، بسبب ضيق المقام؛ لنشر البحث في المجلات العلمية المحكمة وترك فرصة لأصحاب البحوث الأخرى.

خامسًا: لم أفرد للبيئة البشرية فصلًا مستقلا كبقية العناصر البيئية الأخرى نظرًا لكون بقية العناصر في الأصل مسخرة لمنفعة الإنسان وأن للإنسان دورًا خطيرًا في الحفاظ على البيئة بجميع مكوناتها، فاكتفيت بالإشارة في نهاية كل فصل إلى دور الإنسان في الحفاظ على البيئة بالإضافة إلى الجانب التطبيقي.

خطة البحث:

وتشتمل على مقدمة، وتمهيد، وستة فصول، وخاتمة:

المقدمة: وتشمل بيان أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومنهج البحث، وخطته.

التمهيد: في التعريف بالمصطلحات ذات الصلة بالموضوع وفيه أربعة مباحث.

المبحث الأول: التعريف بالبيئة ومكوناتها وأثرها في الإنسان.

المبحث الثاني: التعريف بالتلوث البيئي وصوره.

المبحث الثالث: مفهوم التوازن البيئي.

المبحث الرابع: معجزة الإسلام في التبصر المبكر بمشكلة البيئة.

الفصل الأول: مشكلة تلوث البيئة المائية -البحار والأمطار والأنهار والبحيرات والآبار- وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي.

الفصل الثاني: مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية، وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي.

الفصل الثالث: مشكلة تلوث البيئة الأرضية، وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي.

الفصل الرابع: مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية، وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي.

الفصل الخامس: مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحية النباتية، وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي.

الفصل السادس: نماذج تطبيقية للحماية البيئية، وفيها ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الاهتمام بالبيئة في العصور القديمة.

المبحث الثاني: الاهتمام بالبيئة في الإسلام.

المبحث الثالث: الاهتمام بالبيئة في العصر الحاضر.

ويحتوي على الاتفاقيات الدولية لحماية البيئة وموقف الفقه منها.

الخاتمة: وفيها أهم نتائج البحث والتوصيات المقترحة.

التّمهيد
التعريف بالمصطلحات ذات الصلة بالموضوع

فيه أربعة مباحث:

المبحث الأول: التعريف بالبيئة ومكوناتها وأثرها في الإنسان.

المبحث الثاني: التعريف بالتلوث البيئي وصوره.

المبحث الثالث: مفهوم التوازن البيئي.

المبحث الرابع: معجزة الإسلام في التبصر المبكر بمشكلات البيئة.

المبحث الأول
التعريف بالبيئة ومكوناتها وأثرها في الإنسان

أولًا: التعريف بالبيئة:

البيئة في اللغة: من الفعل (بوأ) وله معان عدة فبوأه منزلا أي نزل به إلى سند جبل، وبوأه له وبوأه فيه أي هيأه له وأنزله ومكن له فيه، و(تبوأ) أي نزل وأقام، ومنه في القرآن الكريم: ﴿ أَنْ تَبَوَّآ لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتًا وَاجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] أي اتخذوا. والاسم البيئة أي المكان والمنزل[2].

البيئة في الاصطلاح:

تعددت تعريفات العلماء للبيئة وسبب ذلك أن لفظ البيئة لفظ شائع الاستخدام. وسأورد بعض هذه التعريفات وأختار ما أراه راجحًا منها على النحو التالي:

التعريف الأول:

البيئة هي: «مجموعة من النظم الطبيعية والاجتماعية والثقافية التي يعيش فيها الإنسان والكائنات الأخرى والتي يستمدون منها زادهم، ويؤدون فيها نشاطهم»[3].

التعريف الثاني:

البيئة هي: «المكان الذي يتخذ منه موطن ومعاش بكل ما تحمله هذه العبارة من معنى»[4].

التعريف الثالث:

البيئة هي: «المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل من ماء وهواء وفضاء وتربة، وكائنات حية، ومنشآت أقامها لإشباع حاجاته»[5].

ويمكن تسمية هذا التعريف الأخير بأنه التعريف الإجرائي وهو أقرب التعاريف وأنسبها للبيئة، وهذا لا يعني عدم صحة التعاريف الأخرى، فكلها تعاريف اصطلاحية، ولا مشاحَّة في الاصطلاح، وإن وجد خلاف في التعبير فهو خلاف لفظي، غير أن التعريف الأخير يُعد مرادفا للطبيعة وهذا هو السبب في جعله أقرب التعريفات للبيئة.

ثانيًا: مكونات البيئة

من خلال النظر في تعريف البيئة يمكن القول بأن البيئة بمفهومها الواسع تتألف من عدة مكونات ذكرها القرآن الكريم هي السماء، والأرض، والنبات، والماء، والهواء، والحيوان، ويحسن أن أنوه بطريقة موجزة لكل من هذه المكونات ودورها في البيئة على النحو التالي:

١- السماء: ومما جاء فيها أنها: السقف المحفوظ الذي يحيط بالأرض من جميع جوانبها ليحميها من الإشعاعات الكونية الضارة، وليجعل الحياة ممكنة على هذه الأرض[6].

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾[7].

وهي أيضًا مصدر الماء الذي به حياة كل شيء، قال تعالى: ﴿ أَمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾[8].

---

(١) يونس الآية: ٨٧.

(٢) لسان العرب لابن منظور مادة (بوأ).

(٣) الإسلام والبيئة لمحمد مرسي ص١٩، أكاديمية نايف للعلوم الأمنية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٤) قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة الإسلامية، ص ٣٢، ٣١ لماجد الحلو، ط: دار المطبوعات الجامعية الإسكندرية.

(٥) الإسلام والبيئة ص١٩.

(٦) هندسة النظام البيئي في القرآن لعبد العليم خضير، ص٢٠١، ط: دار الحكمة- البحرين، ١٩٩٥م.

(٧) الأنبياء الآية: ٣٢.

(٨) النمل الآية: ٦.

فهـذه الآيات وغيرها الكثير والكثير تُؤكد أن السـماء مكون من مكونـات البيئة ولها دور كبير في تفعيل وظائف سـائر المكونات الأخرى.

٢- الأرض:

وهـي البيئـة الطبيعية للإنسـان والحيـوان والنبـات، جعلها الله عز وجل ممهدة مسـخرة للإنسـان قال تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُـوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾[١].

وهـي بدورهـا تقـوم بتخزيـن الميـاه، قـال تعـالى: ﴿ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً بِقَـدَرٍ فَأَسْـكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّـا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾[٢].

وتقوم أيضًا بعمل المصفاة التي تصفي المياه من الشوائب العالقة فيهـا لتخرج مـن باطن بعضها ماء نقيًّا فراتًـا عذبًا، ومن بعضها ماءً مالحًا.

وقـشرة الأرض تحتـوي عـلى معـادن متعـددة تدخـل في حيـاة الإنسـان من أوسـع أبوابها، حتى إن بعـض عناصرها يدخل في بناء المادة الحية: في جسم الإنسان كالحديد والكالسيوم.

فضـلًا عـن كونها أصـل خلـق الإنسـان، قـال تعـالى: ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُـمْ مِنْ تُرَابٍ ثُـمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُـمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِـنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَـا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَـصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِى كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِـيرٌ ﴾[٣]، بالإضافة إلى كونها عصب عملية التصنيع والتشييد.

٣- المـاء: والمـاء مهـم جـدًّا في البيئـة، فبدونـه لا يمكـن لبقيـة المكونات أن توجد ولا للحياة أن تسـتمر، قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[٤].

ومـن عجيب صنـع الله تعالى ورحمته بعبـاده أن جعل نزول الماء من السـماء وفـق احتيـاج الكائنات له، فـلا يندر بحيـث يعجز عن إحيـاء الأرض، ولا يزيد بحيث يغرق الأرض ويقضي على الحرث والنسـل قـال تعـالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّـمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْـكَنَّاهُ فِى الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾[٥]، إلا أن هـذا الإنزال الحكيم مشروط بطاعة الإنسـان لخالقه وشـكره له ولنعمه الكثيرة الظاهرة والباطنة.

٤- الهواء:

وهـو خليـط غـازي مؤلـف من غـازات كثـيرة بنسـب في غاية الدقة والإتقان، مثل غاز الأكسـجين والنتروجين، وثاني أكسيد الكربـون وغيرهـا[٦]، وللهـواء دور كبـير في حيـاة الإنسـان، والحيـوان، والنبـات فلو انقطع الهـواء عن الإنسـان أو الحيوان لمـات، ولو انقطـع عن النبات لهلـك، ولو انقطع مـن الفلك في البحار ما جرت[٧].

٥- النبات:

وهـو مصدر الغذاء للإنسـان، والحيوان، ويُسـتخدم شـجره في صناعـات عديـدة تُسـاهم في إحيـاء البيئـة، وإحـداث الدفء، والحصول على غاز الأكسـجين الذي لا يستغني عنه كائن حي، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك حينما ربط بين الشجر الأخضر والنـار التي لا توقد إلا بالأكسـجين بقوله تعالى: ﴿ الَّذِى جَعَلَ لَكُـمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴾[٨].

٦- الحيوان:

والحيوان اسـم جنس شـامل لما يندرج تحت الحيـوان من أبقار، وأغنـام، وماعـز، وإبـل، وخيـل وغيرهـا، وطيـور كالغـراب، والهدهـد، وغيرهـا، ووحـوش كالذئـب، والنمـر، وغيرهـا، وحـشرات كالنمـل والذبـاب وغيرهـا، وقـد ورد ذكـر هـذه الأصنـاف في القرآن الكريم، ومن تكريم الله للإنسـان أن جعل كل هـذه الحيوانـات باختلاف أنواعها مسـخرة للإنسـان، ولها دور كبير في إيجاد البيئة وانتظامها.

(١) الملك الآية: ١٥.
(٢) المؤمنون الآية: ١٨.
(٣) فاطر الآية: ١١.
(٤) الأنبياء الآية: ٣٠.
(٥) المؤمنون الآية: ١٨.
(٦) ينظر: من علوم الأرض القرآنية، لعدنان الشريف، ص٨٣، ط٢: دار القلم بيروت ١٩٩٤م.
(٧) ينظر: مفاتيح الغيب ٤/ ٢٢٣.
(٨) يس الآية: ٨٠.

ثالثًا: أثر مكونات البيئة في الإنسان:

بعد التأمل في مكونات البيئة السابق عرضها يمكن القول إن هذه المكونات البيئية لها تأثير مباشر في الإنسان على النحو التالي:

١- هذه المكونات خلقها الله تعالى وجعلها مُسخَّرة لمنفعة الإنسان، وإن بعضها له دخل في أصل خلقته كالأرض.

٢- أن هذه البيئة يمكن أن يستفيد بها الإنسان بشرط المحافظة على نقائها وطهارتها وتجنب إفسادها وتلوثيها.

٣- يوجد تناغم وترابط وتوازن بين هذه المكونات بصنع الله تعالى، وأمر الله الإنسان بالمحافظة على هذا النظام والتوازن البديع الذي حدث من أجل الإنسان نفسه.

٤- هذه المكونات قد تكون فيها منفعة وفوائد للإنسان إن أحسن التعامل معها، وقد تكون أداة عذاب للإنسان إذا تكبر واستكبر على من أوجدها، أو أساء التعامل معها ولم يؤد شكرها كنعم.

٥- كل هذه المكونات لها أجل مسمى يعلمه الله في عقيدة المسلمين، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[١]، ولها ذكر لله -عز وجل- بطريقة لا يعلمها إلا علام الغيوب قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾[٢].

فلا يجب على الإنسان أن يكون نشازًا عن مكونات البيئة، وهو الذي فضله الله على سائر المخلوقات، فينبغي للإنسان ألا يُفتقد حيث أمره الله وألا يوجد حيث نهاه الله جل في علاه.

المبحث الثاني
التعريف بالتلوث البيئي وصوره

أولًا: التعريف بالتلوث البيئي:

من خلال الحديث عن البيئة ومكوناتها تبين أن مكونات البيئة الحية منها وغير الحية تتفاعل وترتبط ببعضها في تناسق دقيق، يتيح لها أداء دورها بشكل متوازن ومتكامل، بحيث تحافظ على وجودها بدون أن تتسبب في خلخلة منظومة الحياة، وتهدد سائر الأحياء، وتبين أيضًا أن أي خلل في هذا النظام البيئي يعني الخطر على الأحياء جميعًا، وهذا الخطر يعرف في الأدبيات المعاصرة بالتلوث، وقد اختلفت الأنظار والأفهام في تعريف التلوث، فالبعض يفهم التلوث بأنه الجمال الشكلي فيعبر عنه بأنه: إلقاء النفايات بما يفسد جمال الطبيعة ونظافتها[٣]، والبعض الآخر يفهم التلوث بالمعنى العلمي، وهو المراد هنا فعبروا عنه بأنه: «عبارة عن حدوث تغير وخلل في الحركة التوافقية التي تتم بين العناصر المكونة لنظام الإيكولوجي، بحيث تشل فاعلية هذا النظام وتفقده القدرة على أداء دوره الطبيعي في التَّخلص الذاتي من نفاياته بطريقة عادية»[٤].

وهذا التعريف هو الأهم، والتلوث بهذا المفهوم هو الأخطر لما يحدثه من تدهور في التوازن البيئي.

ثانيًا: أهم صور التلوث البيئي المعاصرة:

بنظرة متأنية في تعريف التلوث البيئي بالمعنى العلمي يتضح أن للتلوث البيئي صورًا عديدة أذكر بعضًا منها بإيجاز على النحو التالي:

١- الاحتباس الحراري:

وهذه الصور تحدث بسبب احتباس غاز ثاني أكسيد الكربون والغازات الأخرى في المناطق المحيطة بسطح الأرض، مما يؤدي إلى زيادة ارتفاع درجة الحرارة على سطح الأرض، فيؤدي إلى حدوث ذوبان للجليد في قمم الجبال الشاهقة المغطاة بالثلوج، فيتحول هذا الذوبان إلى مياه تصب في البحار والمحيطات، ومن ثم سيرتفع منسوبها مما يؤدي إلى غرق جزر وسواحل في مدن كثيرة[٥].

٢- الأمطار الحمضية:

وهذه الأمطار تتكون بسبب تفاعل غاز ثاني أكسيد الكبريت

(١) القصص الآية: ٨٨.

(٢) الإسراء الآية: ٤٤.

(٣) مقال بعنوان: مشكلة البيئة من منظور إسلامي، للدكتور مصطفى صالح باجو، منشور على موقع المجمع المسجدي بشبكة الإنترنت.

(٤) البيئة والإنسان ص٩٩.

(٥) البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، أ.د/ محمد بن يحيى بن حسن النجيمي، ص١٩، بحث مقدم للدورة التاسعة عشرة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

الذي ينتج من عمليات احتراق محطات توليد الطاقة، والبراكين والينابيع الكبريتية، ومصانع الفحم، والأسمدة، ومعامل تكرير النفط والصناعات البتروكيماوية وغيرها، حيث يتفاعل هذا الغاز مع الأكسجين بوجود الأشعة فوق البنفسجية التي تصدر من الشمس، وينتج من هذا التفاعل ثالث أكسيد الكبريت، الذي يتحد مع جزيئات بخار الماء؛ ليكون حمض الكبريت، والذي يسقط مع ماء المطر مكونًا الأمطار الحمضية(١).

٣- تلوث المياه:

إن من أكثر الأسباب التي تُؤدي إلى تلوث المياه هو تصريف النفايات قبل معالجتها، وكذلك رمي المخلفات الصلبة والسائلة في مياه الأنهار وربما البحيرات، كما أن المحيطات والبحار لم تسلم من التلوث إذ إن السفن والناقلات النفطية تسرب بقاياها في عرض البحار، وتقدر كمية النفط المتسرب في البحار والمحيطات سنويًّا بنحو خمسة ملايين طن، والطن الواحد من النفط يغطي مساحة من الماء قدرها اثنا عشر كيلومترًا، وهذا لا شك في أنه من ملوثات المياه(٢).

٤- استنزاف الموارد الطبيعية:

وهذا يحدث بسبب الأنانية المذمومة من البشر الذين يعيشون على الأرض، وقد يكون هذا الاستنزاف لتلك الموارد الطبيعية ليس لحاجة ماسة عند هؤلاء البشر، وإنما استنزفت في سبيل الترف والتبذير والإسراف(٣).

٥- التصحر:

ويعرف التصحر بأنه التدهور الكلي أو الجزئي لعناصر الأنظمة البيئية، ينجم عنه تدني القدرة الإنتاجية لأراضيها، وتحولها إلى مناطق شبيهة بالمناطق الصحراوية بسبب الاستغلال المكثف لمواردها من قبل الإنسان، وسوء أساليب الإدارة التي يطبقها، ولعل من أهم مظاهر التصحر تجريف التربة، وزحف الرمال، وتدهور الغطاء النباتي، وكذلك التملح الذي يحدث للتربة(٤).

(١) المرجع السابق ص ١٢٠.

(٢) رعاية البيئة من التلوث رؤية اقتصادية إسلامية، يوسف عبد الله العريني، ص١٤٥، ط: دار طويق الرياض ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

(٣) البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي ص٢٠.

المبحث الثالث
مفهوم التوازن البيئي

كلمة التوازن البيئي تعني: «قدرة البيئة على إعادة الحياة على سطح الأرض دون مشكلات بيئية أو مخاطر تمس الحياة البشرية»(٥).

والتوازن البيئي يُعد ظاهرة مهمة في عناصر الحياة ويعد السر في استمرارها بالحفاظ على وجود الكائنات الحية وفق منظومة قدرها الخالق -عز وجل- بدقة عجيبة.

ولقد أوضح القرآن في آياته المحكمة هذا الإتقان وذاك الإبداع في التوازن فقال تعالى: ﴿ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴾(٦).

وقال تعالى: ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾(٧).

وقال تعالى: ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾(٨).

وقال -عز وجل-: ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾(٩).

ويقول تقدست أسماؤه: ﴿ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴾(١٠).

ولقد تكفل الله بحفظ سلالات الكائنات الحية حفاظا على نظام التوازن البيئي، فقال تعالى: ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ

(٤) رعاية البيئة من التلوث ص ١٤٥، ١٤٤.

(٥) مقال بعنوان: مشكلة البيئة من منظور إسلامي، مرجع سبق ذكره.

(٦) الحجر الآية: ١٩.

(٧) الحجر الآية: ٢١.

(٨) الرعد الآية: ٨.

(٩) القمر الآية: ٤٩.

(١٠) الرعد الآية: ١٧.

ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾[1].

فإحداث التوازن البيئي صنعة الخالق سبحانه وتعالى، يثبت من خلاله للبشرية كلها أن الله تبارك وتعالى قد خلق الكون في نظام محكم دقيق، إلا أنه يفقد توازنه بالمؤثرات الخارجية، ومع تراكمها وكثرتها وشمولها تحدث خللا خطيرًا في النظام البيئي المتوازن.

ولذلك نهى الله -سبحانه وتعالى- عن عداء هذا التوازن الذي هو صنعته -سبحانه وتعالى- فقال: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

وهكذا بين الله للإنسان أيا كان نوعه، أو جنسه، أو ديانته أو لغته، أن هذا الكون وما فيه مسخر لخدمته؛ ليعيش فيه عيشة هادئة مطمئنة يَحترِم ويُحترَم، وأمره بالمحافظة على البيئة ونهاه عن الإضرار بها.

المبحث الرابع
معجزة الإسلام في التبصر المبكر بمشكلات البيئة

إن من أكبر التحديات التي تواجه عالمنا المعاصر والتي لفتت أنظار العلماء في مختلف البلدان واستنهضت هممهم لبحثها وإيجاد سبل علاجها «مشكلة التلوث البيئي»، وعلى الرغم من أن علم البيئة بالنسبة لدول الشمال قد نشأ في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي في سياق التشعب المتزايد للتخصصات العلمية، وتطور الصناعات المفرزة للكثير من العوادم الضارة إلا أن هذه الدول لم تعتن بمشكلة التلوث ومخاطره الضارة إلا في الستينيات والسبعينيات من القرن العشرين[3].

ولقد حاول بعض الباحثين إيجاد حلول لمشكلات تلوث البيئة المتزايدة، وبسبب تفاقم هذه الظاهرة البيئية عجزت كل الحلول المستوردة والبعيدة عن الإسلام لدرجة أن عبر بعض الباحثين في مجال البيئة عن تفاقم مشكلة تلوث البيئة قائلًا: «لو كان للبيئة لسان ينطق لصكت أسماعنا صرخات الغابات الاستوائية التي تحرق عمدًا في الأمازون وأنين المياه التي تخنقها بقع الزيت في الخلجان والبحار وحشرجة الهواء المختنق بالغازات والرصاص في المدن الكبرى»[4].

وإذا كان التلوث نتيجة التقدم الصناعي فهل يقتضي الأمر إيقاف عملية التطور والعودة إلى الحياة البدائية الأولى لتخليص البشرية من مخاطر التلوث؟

إن الحل بالطبع ليس في هذا القرار بل في تسخير التقدم العلمي والتكنولوجي للبحث عن أنجح الوسائل وأجداها لتفادي الآثار السلبية لزحف الآلة الصناعية على الحياة الطبيعية.

هذا الحل رسمه الإسلام منذ أكثر من أربعة عشر قرنًا ووضع أسسه ودعائمه بما يحفظ للإنسانية أمنها وسلامة اقتصادها.

وامتاز الحل الإسلامي لمشكلة التلوث البيئي بأمرين أساسيين هما:

الأول: المبادئ الوقائية التي إذا التزم بها فلن توجد المشكلة.

الثاني: التشريعات الحازمة للمنتهكين للمبادئ الوقائية.

فالإسلام يسلك في المحافظة على البيئة اتجاهين اثنين:

الاتجاه الأول: الحفاظ على البيئة وعدم إفسادها ومنع الاعتداء عليها يقول الله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[5].

الاتجاه الثاني: إعمار الأرض، وإضافة الجديد الصالح لها، والعمل على تجديدها، ورعايتها وتنميتها، وزيادة مواردها، وتحريم الاعتداء عليها ومعاقبة من يفعل ذلك، أو يعتدي على أي كائن يعيش عليها وأرشد إلى العلاج النافع لكف الظلم والاعتداء فقال تعالى: ﴿ وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ

(١) الأنعام الآية: ٣٨.

(٢) الأعراف الآية: ٥٦.

(٣) البيئة في الكتاب والسنة المطهرة، تأليف السيد علي بن السيد عبد الرحمن آل هاشم، بحث مقدم للمؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية بالأزهر ١٨-٢٠ شوال ١٤٣١هـ الموافق ٢٧-٢٩ سبتمبر ٢٠١٠م.

(٤) مقال بعنوان: «الغابات تصرخ من القطع الجائر وحرق أشجارها» بشبكة الإنترنت الدولية.

(٥) الأعراف الآية: ٥٦.

وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ ﴾[1].

فعمارة الأرض في الإسلام فريضة يجب على المسلم أن يقوم بها، والمحافظة عليها ومعاقبة المعتدين عليها، ولا بد من وسائل ناجحة لتحقيق عمارتها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، فالمحافظة على البيئة ومعاقبة المعتدين عليها وفق القواعد الفقهية المقررة في هذا الشأن[2] واجب شرعي.

من هنا يتضح جليًّا إعجاز الإسلام في التبصر المبكر لمشكلات البيئة ووضع السبل لمواجهتها كما سيتضح تفصيل ذلك كله في الفصول التالية -إن شاء الله تعالى-.

(١) هود الآية: ٦١.

(٢) من القواعد الفقهية المقررة في هذا الشأن قواعد رفع الضرر والتي من أهمها: (الضرر يزال)، (درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح)، و(لا يدفع الضرر ضرر مثله)، و(يرتكب الضرر الأخف لدفع الضرر الأعظم)، و(يرتكب الضرر الخاص لدفع الضرر العام).

الفصل الأول
مشكلة تلوث البيئة المائية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة المائية.

المبحث الثاني: سبل مواجهة مشكلة تلوث البيئة المائية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول
مشكلة تلوث البيئة المائية

تمهيد: أهمية الماء

الماء هو من أهم عناصر الحياة، فهو المكون الأساسي للبيئة، فهو سبب حياة كل شيء حي على سطح الأرض أو في سمائها أو في بحارها قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[4].

ونبهنا المولى تبارك وتعالى إلى عظم المياه النقية وقيمتها وفوائدها فقال تعالى: ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴾[5].

كما أوضح المولى أهمية انسياب الماء وهو ما يعني الصفاء والنقاء فقال تعالى: ﴿ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا ﴾[6].

وفي ضوء تقرير هذا المبدأ فقد أوضح لنا الرسول الكريم اشتراك الناس في الانتفاع بالماء فقال ﷺ: «الناس شركاء في ثلاث الماء

(٣) الأنبياء الآية: ٣٠.

(٤) الأنعام الآية: ٩٩.

(٥) الواقعة الآية: ٦٨-٧٠.

(٦) النبأ الآية: ١٤-١٦

والكلأ والنار»[1].

وللماء دور كبير جدًّا في الصناعة، فيستعمل كمذيب في الصناعة، وفي التبريد وغيرها من العمليات الصناعية، ومصادر المياه متعددة منها: ماء البحار والمحيطات، والمياه الجوفية، والمياه الجليدية مع ملاحظة أهمية مياه الأمطار التي هي في الأصل ماء البحر بعد التبخر.

هذا ويكفي في بيان أهمية الماء أنه أول ما خلق الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، كما دلت على ذلك الآيات الكثيرة التي منها قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾[2].

صور من تلوث المياه:

من المناسب هنا قبل سرد صور تلوث المياه أن أبين ما المقصود بتلوث المياه؟

المقصود بتلوث المياه: إحداث تلف أو إفساد بنوعية المياه مما يُؤدي إلى حدوث خلل في نظامها بصورة أو بأخرى بما يقلل من قدرتها على أداء دورها الطبيعي، بل تصبح ضارة مؤذية عند استعمالها، أو تفقد الكثير من قيمتها الاقتصادية، وبصفة خاصة مواردها من الأسماك والأحياء المائية.

وتتعدد صور تلوث المياه إلى صور متعددة أذكر بعضا منها فيما يلي:

أولًا: التلوث من مصادر أرضية: مثل نفايات الأنشطة الصناعية والزراعية بالصرف الصحي والصناعي، وإلقاء النفايات والقاذورات، وما تحمله الأمطار، وما تلقيه الرياح، وأيضًا من مصافي تكرير البترول المقامة على الساحل، وما ينسكب من السفينة أثناء عمليات الشحن والتفريغ[3].

ثانيًا: التلوث من أنشطة استكشاف واستغلال قاع البحار في استخراج النفط، والغاز الطبيعي والمعادن التي تستخرج من الصخور من قاع البحر.

ثالثًا: التلوث الناجم عن إغراق وتصريف النفايات في البحار، وأيضًا من تصريف النفايات النووية والكيميائية الخطرة في البحار.

رابعًا: تلوث الماء بالطحالب: وهي عبارة عن الريم الأخضر الطافي على سطح المياه الراكدة، أو العالق في الأعماق والخزانات، والأحجار وأشكالها مختلفة، ومنها البني اللون على الشواطئ المالحة والأحمر في المياه المالحة والعذبة[4].

خامسًا: تلوث المياه بسبب سوء استخدام الإنسان لها واعتدائه عليها إما بإلقاء المخلفات الصناعية في البحر، وإما بتصريف المجاري وإلقاء القمامة فيها، أو قضاء حاجة الإنسان فيها كما يفعل بعض من عدموا الوعي البيئي، وتعد إسرائيل من أهم مصادر تلويث مياه البحر المتوسط بالزئبق، وقد تناقلت وكالات الأنباء أخبارًا مفادها أن شركة حيفا للكيماويات تقوم -منذ عدة سنوات- بدفن كميات كبيرة من مخلفات الزئبق في البحر الأبيض المتوسط، وقد حاولت منظمة السلام الأخضر[5] منعها عن ذلك لكنها لم تعتن بتحذيرات هذه المنظمة.

والمعروف أن إسرائيل لا تزال تمتنع عن التوقيع على اتفاقية حظر دفن المخلفات الصناعية.

المبحث الثاني
سبل مواجهة مشكلة تلوث المياه في الفقه الإسلامي

من المسلم به في الفقه الإسلامي أن المحافظة على البيئة المائية واجب؛ لأن الماء أساس الطهارة في الفقه فضلًا عن كونه أساس الحياة أصلا؛ لذا اعتنى فقهاء الإسلام بتناول الكثير من

(١) أخرجه الزيلعي في نصب الراية، فصل في المياه، الحديث الخامس، وقال: قلت روي من حديث ابن عباس ومن حديث ابن عمر.

(٢) هود الآية: ٧.

(٣) حماية البيئة من التلوث ودور أجهزة الأمن الصناعي، ص١٩، تأليف: شحاتة سليمان المليجي، بحث ضمن مجلة كتاب العمل، العدد ٤٦٦- مارس ٢٠٠٠م.

(٤) المرجع السابق ص١٩ وما بعدها.

(٥) وهي من المنظمات التي تعنى بشؤون البيئة، ويوجد في العالم أكثر من مائة ألف منظمة عالمية ومحلية لحماية البيئة، وتضم أكثر من مائتي مليون عضو نصفهم في العالم الثالث.

الجوانب المتعلقة بالمياه من حيث أنواعها، وأوصافها، وتلوثها وكيفية إزالة تلوثها، ومع اتفاقهم في الجملة على أن الماء يتنجس بوقوع النجاسة فيه إلا أنهم اختلفوا في وصف هذا الماء متى تكون النجاسة مؤثرة في طهوريته ومتى لا تؤثر فيه على النحو التالي:

أولا: الحنفية حيث يرون التفريق بين الماء الجاري والراكد، فأما الجاري إن وقعت فيه نجاسة غير مرئية كالبول والخمر ونحوها، فإنه لا ينجس ما لم يتغير لونه، أو طعمه، أو ريحه، والأصل في الجاري هو ما يعده الناس جاريًا وإلا فلا، وأما الماء الراكد فيميز فيه بين القليل والكثير فإن كان قليلا تنجس بوقوع النجاسة فيه، وإن كان كثيرًا لم يتنجس، والحد الفاصل بين القليل والكثير عندهم يعد بالتحريك، فإن كان بحال لو حرك طرف يتحرك الطرف الآخر، فهو القليل، وإن كان لا يتحرك فهو الكثير، والتحريك يكون بالاغتسال فيه من غير عنف، وفي رواية بالوضوء، وفي رواية باليد من غير اغتسال ولا وضوء[1].

ثانيًا: المالكية حيث يرون: أن الماء إذا خالطته نجاسة فلم تغير أحد أوصافه فالماء طهور سواء كان قليلًا أم كثيرًا[2].

ثالثًا: الشافعية والحنابلة: حيث يرون أن الماء القليل وهو ما كان دون القلتين[3] ينجس بملاقاة النجاسة المؤثرة وإن لم يتغير؛ لحديث «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يغمس يده في الإناء حتى يغسلها ثلاثا فإنه لا يدري أين باتت يده»[4].

ووجه الدلالة من الحديث: أن رسول الله ﷺ نهى عن الغمس خشية النجاسة، ومعلوم أنها إذا خفيت لا تغير الماء، فلولا أنها لا تنجسه بوصلها لم ينهه.

هذا عن الماء القليل، وأما الماء الكثير وهو ما بلغ قلتين فما فوق فلا ينجس ما لم يغير النجس أحد أوصافه[5]؛ لقوله ﷺ: «إذا كان الماء قلتين لم يحمل الخبث»[6].

ووجه الدلالة من الحديث ظاهر وهو أن الماء الكثير لم يتنجس بوقوع النجاسة فيه.

رابعًا: الإمامية حيث يرون أن الماء الكثير هو ما بلغ كرا[7].

وهذا لا ينجس ما لم يتغير أحد أوصافه، والقليل وهو ما دون ذلك وهذا القليل ينجس سواء تغير وصفه أم لم يتغير[8].

وبالنظر في أقوال الفقهاء في هذه المسألة يتضح اتفاقهم من حيث الجملة على أن الماء القليل ينجس بملاقاة النجاسة سواء غيرت فيه بعض أوصافه أم لا، أما الكثير فلا ينجس إلا إذا تغير أحد أوصافه مع اختلافهم في تحديد القليل والكثير.

ويتضح أيضًا: أن سبل معالجة تلوث الماء من النجاسة تكون بمكاثرته، حيث يزول تغيره إن كان متغيرا، وإن لم يكن متغيرا طهر بمجرد المكاثرة وقد يكون زوال تغيره بنفسه، كأن يطول مكثه فإنه يطهر بذلك أيضًا[9].

ويعالج الماء الملوث عند المالكية أيضًا: بإلقاء شيء فيه من تراب أو طين إن لم تظهر أحد أوصاف ما ألقي فيه وإلا فلا[10].

ويعالج الماء الملوث عند أكثر فقهاء الإمامية بتدافع الماء الكثير الطاهر عليه[11].

هذه بعض السبل العلاجية لمواجهة تلوث المياه في الفقه الإسلامي.

أما السبل الوقائية فقد قرر الفقهاء ضرورة صيانة المياه عن مصادر التلوث، فقد جاء في كتاب «شرائع الإسلام» ما نصه: «ويستحب أن يكون بين البئر والبالوعة خمسة أذرع إذا كانت

(١) المبسوط للسرخسي ١/ ٧٠، ٧١ ط دار المعرفة بيروت.
(٢) بداية المجتهد لابن رشد ١/ ٢٣ ط دار الفكر بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٨٥م.
(٣) وهو عند الجمهور ما بلغ عشرة أذرع طولًا، وعشرة أذرع عرضًا، ينظر معجم لغة الفقهاء لمحمد قلعجي ١/ ٣٩٥، ط: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب كراهية غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإناء قبل غسلها ثلاثا. برقم ٢٧٨.

(٥) مغني المحتاج، للشربيني ١/ ٣٥، ٣٩ ط الحلبي، والمغني، لابن قدامة ١/ ٤٠٢٣٨ تحقيق عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط: هجر- القاهرة ط٢ سنة ١٤١٠هـ.
(٦) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطهارة، باب ما ينجس الماء، برقم (٦٣).
(٧) الكر: ١٢٠٠ رطل عراقي ويعادل ٢٧ تنكة مياه ينظر: شرائع الإسلام، للحلي ١/ ١٣، والفقه على المذاهب الخمسة، لمحمد جواد مغنية ص١٩، ط: ٥ دار العلم بيروت ١٩٧٧م.
(٨) شرائع الإسلام ١/ ١٢٠.
(٩) مغني المحتاج ١/ ٣٦، والمغني ١٠/ ٥١.
(١٠) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، للدسوقي ١/ ٧٦ ط: الحلبي.
(١١) شرائع الإسلام للحلي ١/ ١٢- ١٣.

الأرض صلبة، أو كانت البئر فوق البالوعة، وإن لم يكن كذلك فسبع، ولا يحكم بنجاسة البئر إلا أن يعلم وصول ماء البالوعة إليها، وإذا حكم بنجاسة الماء لم يجز استعماله في الطهارة مطلقًا ولا في الأكل ولا في الشرب إلا عند الضرورة»[١].

هذا ومما تجدر الإشارة إليه أن هذه السبل العلاجية والوقائية لمواجهة تلوث البيئة في الفقه الإسلامي مستقاة من القاعدة الفقهية الكبرى وهي «الضرر يزال»[٢].

والقاعدة الفقهية والتي هي (لا ضرر ولا ضرار)[٣]. وهذه القاعدة بدليلها وهو قوله ﷺ: ((لا ضرر ولا ضرار))[٤] تعد دليلًا وأصلا لسابقتها.

فهذه الأحكام تُعد الأثر الفقهي لهاتين القاعدتين.

هذا بالإضافة إلى التوجهات النبوية الكثيرة للحد من تلوث المياه والمحافظة عليها، والتي منها على سبيل المثال، النهي عن الإسراف في استعمال الماء وتعريضه للتلوث حيث جاء في الحديث أن النبي ﷺ مر بسعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- وهو يتوضأ فقال: «ما هذا السرف؟» فقال: أفي الوضوء إسراف؟ قال: «نعم، وإن كنت على نهر جار»[٥].

وجاء أيضًا أن أبا سعيد الحميري حدث عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله ﷺ: «اتقوا الملاعن الثلاث: البراز في الموارد وقارعة الطريق والظل»[٦].

وجاء أيضًا: عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ولا يغتسل فيه من الجنابة»[٧].

فهذه الأحاديث وغيرها من الرسول الكريم ﷺ بمثابة وثيقة وبرنامج وقائي لأمته ﷺ في كيفية الحفاظ على الماء بجعله عنصرًا من العناصر المهمة في البيئة فجاءت أحاديثه ﷺ ناهية أن يبال في الماء الراكد، ولا الماء الجاري، ولا في أماكن الظل؛ لأنها أماكن يركن إليها المارة للراحة من وعثاء السفر وعناء السير، وربما لأن الشمس لا تدخلها، فلا تتطهر فتصبح محط الأوبئة وموضع الأمراض. فالرسول ﷺ بجانب نظرته إلى الماء على أنه أساس الحياة يوقن بخطورة التبول أو التبرز في الماء على البيئة وعلى صحة الإنسان؛ ولذلك اكتشف المتخصصون في علم الطب والتحاليل الطبية هذه الأيام خطورة التبول والتبرز في المياه وتحت الظل، فوجدوا أن التبول والتبرز في الماء يُؤدي إلى الإصابة بطفيل الدودة الكبدية التي تؤدي في النهاية إلى موت الإنسان[٨].

وصدق الله العظيم إذ يقول عن الرسول ﷺ: ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى ﴾[٩].

(١) شرائع الإسلام للحلي ١٠/ ١٥، ١٤، والمبسوط ١/ ٦١.
(٢) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/ ٨ ترقيم الموسوعة الشاملة.
(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.
(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي سعيد الخدري بلفظ: «لا ضرر ولا ضرار من ضار ضاره الله، ومن شاق شاق الله عليه». كتاب البيوع برقم ٢٣٤٥.
(٥) أخرجه ابن ماجه في السنن كتاب الطهارة برقم (٤٢٥).
(٦) الحديث رواه الإمام أحمد وفيه أبو لهيعة ورجل لم يسم. ينظر: مجمع الزوائد ١/ ٢٠٤ ط دار الكتاب العربي بيروت، نيل الأوطار ١/ ١٠٤، والسنن الكبرى للبيهقي ١/ ٩٧ ط: دار الفكر بيروت، وسنن أبي داود ١/ ٧.
(٧) أخرجه أبو داود في سننه برقم٦٤، كتاب الطهارة، باب البول في الماء الراكد.
(٨) الطب الوقائي د/ إبتسام عبد الحليم، مقال منشور بمجلة منبر الإسلام سنة ١٣٩٦هـ، ومكافحة الأمراض السارية في الإنسان ص٣٠٥ صادر عن جمعية الصحة الأمريكية.
(٩) سورة النجم: الآيتان ٣، ٤.

الفصل الثاني
مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

ويشتمل على مبحثين:
المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية.
المبحث الثاني: سبل مواجهة تلوث البيئة الهوائية أو الجوية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول
مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية

الهواء نعمة كبرى من نعم الله تعالى في هذا الكون، ولا تقل أهمية الهواء عن الماء والغذاء، ولشدة حاجة الإنسان والحيوان إليه، فإن الله جعله مشاعًا بين الناس يتنفس منه الغني والفقير، والخفير والأمير قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾[1].

فمن هذه الآية الكريمة ندرك أن هناك تكاملًا في هذا الكون، فالهواء يحرك الرياح، والرياح تحرك السحاب، والسحاب يتسبب في إنزال المطر، الذي يتسبب في إنبات النبات وإحياء الأرض، وإعاشة الإنسان والحيوان وسائر المخلوقات، والبيئة الجوية والهوائية المحيطة بالإنسان لها أثرها في سلامة الحياة ونظافتها، وإفسادها إفساد لهذه الحياة.

ويرجع تاريخ تلوث الهواء إلى اليوم الذي بدأ فيه الإنسان استخدام الوقود للأغراض المختلفة، بازدياد النشاط الصناعي، وتطور وسائل المواصلات، وازدحام المدن بالسكان.

ويمكن تقسيم مصادر التلوث إلى مجموعات عديدة منها:

أولًا: مصادر طبيعية كالعواصف الترابية والبراكين، وحرائق الغابات.

ثانيًا: مصادر من صنع الإنسان وتشمل:

١- الصناعة، وخاصة الصناعات الكيماوية والسماد والبتروكيماويات والإسمنت والحديد والصلب والسكر وغيرها.

٢- وسائل المواصلات كالسيارات التي تستعمل البنزين والسولار أو القطارات التي تسير بالفحم أو منتجات البترول.

٣- محطات القوى التي تستعمل أنواعا تقليدية من الوقود.

٤- الأنشطة المنزلية التي تستعمل معها نفس الأنواع التقليدية من الوقود فضلًا عن عمليات التخلص من المخلفات التي تحرقها.

ثالثًا: التلوث بالميكروبات والفطريات المختلفة، ويؤدي ذلك إلى انتشار بعض الأمراض، حيث تستطيع بعض الميكروبات أن تتخلل الأجسام عن طريق الجهاز التنفسي، فضلًا عن أن الفطريات تساعد في أمراض الحساسية.

رابعًا: التلوث بالمواد المشعة: فمنذ أن استخدمت الذرة فقد ظهرت ولا تزال تظهر علامات خطيرة على الإنسان والنبات والحيوان والجماد[2].

ولتلوث الهواء بمصادره المتعددة آثاره الخطرة على الإنسان والحيوان والنبات، فضلًا عن الآثار الاقتصادية والاجتماعية السلبية، فقد يُؤدي التلوث مباشرة إلى الوفاة أو المرض الحاد، وقد تحدث آثار مزمنة أو متأخرة، ومنها تهيج العينين، واضطرابات الجهاز التنفسي.

وقد يتأثر الحيوان بالتلوث، إما تأثيرًا مباشرًا بالوفاة أو بالمرض الحاد، وإما تأثيرًا غير مباشر كما هو الحال في تغذيته على نباتات ترسبت عليها مركبات الفلور التي تكثر في المناطق المجاورة لمصانع الألومنيوم ومصانع الأسمدة الفوسفاتية، ومعها تتآكل أسنان الحيوان، ويصاب بالهزال وبنقص إدرار اللبن.

كما تتمثل آثار التلوث على النباتات في قصور نموه ونقص محصوله[3].

(١) سورة الأعراف الآية: ٥٧.

(٢) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ص٣٧٩، ٣٧٨.

(٣) الإسلام والاقتصاد، د/ عبد الهادي النجار ص٢٧٣ ط: دار عالم المعرفة الكويت.

وبالوقوف على بعض مصادر التلوث وآثاره يتضح أن هذه الآثار ذات أبعاد اقتصادية واجتماعية خطيرة تنعكس على الهيكلين الاقتصادي والاجتماعي للدولة التي تصاب بتلوث هوائها، وفي غالب الظن مع هذه الطفرة الصناعية الهائلة لم تسلم دولة من دول العالم من تلك الآثار الخطيرة المترتبة على تلوث الهواء.

وبهذا أكون قد ألقيت الضوء على حجم هذه المشكلة الكبيرة وهو ما قصدت توضيحه في هذا الفصل.

المبحث الثاني
سبل مواجهة تلوث البيئة الهوائية أو الجوية في الفقه الإسلامي

إذا كان اهتمام النظم الوضعية بمشكلة التلوث الهوائي أو الجوي على وجه الخصوص لم يبدأ إلا في الستينيات من هذا القرن بإصدار قانون الهواء النظيف في أمريكا عام١٩٦٣م وفي إنجلترا عام ١٩٦٨م[١] فإنه يتضح أن اهتمام الفقه الإسلامي بهذه المشكلة بدأ منذ فجر الرسالة انطلاقا من عدة قواعد وإجراءات عملية، من بين هذه القواعد قاعدة: لا ضرر ولا ضرار[٢]. ومن أهم تلك الإجراءات:

١- تطبيق ما ذكره الفقهاء في باب القضاء والمرافق من حيث ما يجب على القاضي الحكم به في القضايا المتعلقة بتلوث البيئة وهذا إجراء في الجانب التعاوني.

٢- إجراءات التحكم والرقابة.

٣. الإجراء الوقائي وها هو تفصيل تلك الإجراءات على النحو التالي:

أولًا: الإجراء القانوني الفقهي:

لقد تناول الفقهاء الحديث عن تلوث الهواء بالدخان في معرض ذكر الجوار والضرر الذي يمنع الجار من أن يحدثه لجاره، فقد نص الحنفية والمالكية والحنابلة[٣] على أن يمنع من اتخذ داره حمامًا يتأذى الجيران من دخانه، أو بنى في داره تنورًا للخبز دائما، بحيث يتضرر منه الجيران فإن لهم منعه من ذلك؛ لأنه يتسبب لهم بضرر فاحش، وهم يميزون في الضرر الناتج عن تلوث الهواء بين الضرر اليسير المحتمل عادة -مثل دخان الطبخ والخبز المعتاد في الدار، فهذا لا يمنع؛ لأن الضرر لا يزال بالضرر كما هو مقرر في القواعد الفقهية[٤]- وبين الضرر غير المعتاد وهو الضرر الفاحش كأن يُحدِث في داره تنورًا للخبز دائما، ويتأذى الجيران من استدامة دخانه فإنه يُمنع منه، ويضمن ما أحدثه من تلف به؛ لتعديه به حيث جاء في المدونة: «قلت: أرأيت إن كان لي عرصة إلى جانب دار قوم، فأردت أن أحدث في تلك العرصة حمامًا أو فرنا أو موضعًا لرحى، فأبى علي الجيران ذلك، أيكون لهم أن يمنعوني في قول مالك؟ قال: إن كان ما يُحدث ضررًا على الجيران من الدخان وما شابهه فلهم ذلك -يمنعوك من ذلك-؛ لأن مالكًا قال: يُمنع من ضرر جاره، فإذا كان هذا ضررًا منع من ذلك، قلت: وكذلك إن كان حدادًا فاتخذ فيها كيرًا أو اتخذ منها أفرانا يسيل فيها الذهب والفضة، أو اتخذ فيها أَرْحِيَة تضر بجدران الجيران، أو حفر فيها آبارًا أو كنيفًا قرب جدران جيرانه منعته من ذلك؟ قال: نعم، كذلك قال مالك في غير واحد من هذا في الدخان وغيره»[٥].

ونص المالكية أيضًا على المنع من كل ما يصدر رائحة منتنة تُؤذي[٦]، وعمدتهم في ذلك قوله ﷺ: «من أكل من هذه الشجرة فلا يقربن مسجدنا ولا يؤذينا بريح الثوم»[٧]، حيث دل هذا الحديث على المنع من كل رائحة تُؤذي قياسًا على رائحة

(١) البيئة والإنسان، د/ حسني طه نجم وآخرون، ص٢٢٣ ط: دار البحوث العلمية بالكويت سنة ١٩٧٧م.

(٢) القاعدة الذهبية في المعاملات الإسلامية (لا ضرر ولا ضرار) لابن رجب الحنبلي.

(٣) حاشية ابن عابدين ٧/ ٣٨٠ ط دار الفكر، والمدونة الكبرى، للإمام مالك ٤/ ٣١٤ ط: دار السعادة مصر، وكشاف القناع، للبهوتي ٣/ ١١٦ ط: دار الفكر بيروت، تحقيق: هلال مصلح مصطفى هلال.

(٤) الأشباه والنظائر، للسيوطي ١/ ١٨٥ مرجع سبق ذكره.

(٥) المدونة الكبرى، للإمام مالك ٤/ ٣١٤.

(٦) التاج والإكليل، للمواق، مطبوع بهامش مواهب الجليل ٥/ ١٦٤ ط: دار الفكر بيروت سنة ١٩٧٨.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر كتاب: صفة الصلاة، باب: ما جاء في الثوم والبصل والكراث. برقم ٨١٥.

الثوم والبصل، فيُمنع الشخص من أن يُحدث في داره أو حانوته دباغًا، أو يفتح بقرب جاره مرحاضًا دون أن يغطيه؛ لأن الرائحة المنتنة تُؤذي الإنسان، كما يُمنع من أن يُحدث إصطبلا قريبًا من بيت جاره حتى لا يتضرر ببول الدواب وزبلها»[١].

ويقابل هذه الصور في هذا العصر: أن من يتأذى الناس من دخان مصنعه، أو عادم سيارته المنطلقة بشكل غير معتاد بحيث يترتب على ذلك ضرر فاحش مادي أو صحي للآخرين فإنه يمنع منه، ويطالب بإزالته شرعًا، فالمصلحة العامة تقدم على المصلحة الخاصة[٢]. والمصلحة الفردية في الإسلام لا يُقصد منها مجرد النفع الشخصي بل يُشترط فيها أيضًا ألا تتعارض مع التنظيم التشريعي العام[٣].

ثانيًا: إجراءات التحكم والرقابة:

بالإضافة إلى الإجراءات الفقهية القانونية أو القضائية تأتي إجراءات التحكم والرقابة في الفقه الإسلامي من خلال تفعيل دور المحتسب وقيامه بواجبه تجاه مكافحة تلوث الهواء بالدخان من الأفران، حيث جاء في نهاية الرتبة في طلب الحسبة: «وينبغي أن يأمرهم المحتسب برفع سقائف أفرانهم ويجعل في سقوفها مَنَافس واضحة للدخان»[٤]. فمن خلال هذا النص يتضح أن المحتسب له دور خطير في مواجهة تلوث البيئة الهوائية؛ حيث يحق له اتباع إجراءات التحكم والرقابة التي تمنع حدوث التلوث فورًا وتزيل أسبابه.

ثالثًا: الإجراءات الوقائية:

وهي التي تتبع عند تخطيط المشروعات بشكل لا يضر بالبيئة مثل تحديد إقامة المشروعات الملوثة للبيئة في أماكن لا يصل ضررها للناس؛ حيث جاء في كتب الفقهاء ما نصه: «ويجب أن تصنع القراميد والآجر -مواد البناء- خارج أبواب المدينة وتكون مواضعها بالحفير الذي يبعد عن المدينة، ويجب على المحتسب أن يتخذ لبياعي الحوت (السمك) مكانًا يكون فيه سوقهم بمعزل عن الطريق لما تعوده من الرائحة»[٥].

وهكذا نجد أن الفقه الإسلامي اتخذ سبلًا متعددة لمواجهة تلوث البيئة الهوائية أو الجوية بدءًا بالإجراءات الوقائية لمنع حدوث التلوث أصلًا، وإذا حدث فهناك الإجراءات القانونية أو القضائية الواجب اتباعها لمرتكب هذه الجريمة، ولمنع ذريعة الشتم على مرتكب هذه الجرائم شرع الفقه الإسلامي إجراءات التحكم والرقابة عن طريق المحتسب.

(١) التاج والإكليل، للمواق بهامش مواهب الجليل ٥/ ١٦٤.

(٢) الموافقات، للشاطبي ٢/ ٢٤٣ ط: دار المعرفة بيروت.

(٣) نظرية التعسف في استعمال الحق في الفقه الإسلامي، د/ فتحي الدريني ص٤٠ ط: مؤسسة الرسالة بيروت ط٢ سنة ١٩٧٧م.

(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة، للشيزري، ص١١ نشر السيد الباز العريني- القاهرة سنة ١٩٤٦م.

(٥) ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، لابن عبد الرؤوف ص٩٨، ٩٧ نشر القاهرة سنة ١٩٥٥م.

الفصل الثالث
مشكلة تلوث البيئة الأرضية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة الأرضية.

المبحث الثاني: سبل مواجهة تلوث البيئة الأرضية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول
مشكلة تلوث البيئة الأرضية

إن مما لا شك فيه أن عنصر الأرض عنصر مهم من عناصر البيئة بحكم ما تحويه الأرض في باطنها وما يعلو فوقها من أحياء وجماد، أو ما يحيطها من كواكب ونجوم، وهواء وفضاء؛ ولذلك نجد ذكر الأرض في القرآن الكريم في مواضع عديدة، ومعظم هذه المواضع لها صلة بموضوع البيئة، فنجد بعض هذه الآيات تتحدث عن تسخير الله لما في الكون لصالح الإنسان وأنه خلقه بمقدار، وأي خلل في هذه المقادير يدق ناقوس خطر يهدد الحكمة من الخلق ويعطل هذه المخلوقات عن أداء وظيفتها وسيرها وفق النظام المرسوم، ومن هذه الآيات الكريمة قول الحق -جل وعلا-: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ۝٢٥ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ۝٢٦ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ۝٢٧ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ۝٢٨ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ۝٢٩ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ۝٣٠ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ۝٣١ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾[3].

وقوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[4].

هذه هي بعض الآيات التي بينت أهمية الأرض في البيئة، والمراد بالأرض التراب المفروش على سطح الكرة الأرضية كما جاء في قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾[5].

والله سبحانه وتعالى خلق الأرض طاهرة مطهرة قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[6]. وقال ﷺ: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا»[7].

ويحدث تلوث الأرض بشكل عام بعدة ملوثات ومنها:

١- تراكم المواد والمخلفات الصلبة التي تنتج من المصانع والمزارع والمنازل والمطاعم والدكاكين وما أشبه ذلك.

٢- تتلوث الأرض أيضًا بسبب سقوط الأمطار الحمضية عليها.

٣- كما تتلوث بسقوط الغبار الذرِّيِّ الناتج عن التفجيرات النووية.

٤- كما يحدث التَّلوث أيضًا بسبب الملوثات التي تكون مرافقة أو ذائبة في مياه الري أو المياه الجوفية.

٥- ومما يحدث تلوثا للبيئة الأرضية أيضًا فضلات الحيوان،

(١) سورة البقرة الآية: ١٦٤.

(٢) سورة البقرة الآية: ٢٢.

(٣) سورة عبس الآية: ٢٥- ٣٢.

(٤) سورة الجاثية الآية: ١٣.

(٥) سورة البقرة الآية: ٢٢.

(٦) سورة المائدة الآية: ٦.

(٧) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: الصلاة، باب: جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى فضلات الإنسان[1].

هذه هي بعض صور تلوث الأرض، وأما عن إحداث التلوث للمشكلات البيئية الأرضية فإن التلوث يفقد الأرض خصوبتها، ويؤثر تأثيرًا سيئا، حيث يتسبب التلوث في قتل البكتيريا النافعة التي تعمل على تحليل المواد العضوية وعلى تثبيت عنصر النتروجين، فإذا تمكنت الملوثات البيئية من القضاء على أنواع من البكتيريا النافعة الموجودة في الدورة الطبيعية لعنصر النتروجين الضروري لنمو النبات فإن الحياة على كوكب الأرض -سواء حياة الإنسان أو الحيوان أو النبات- سوف تأذن بالفناء، وارتفاع نسبة الأملاح في الأرض عن المعدل الطبيعي المقرر يوجب تلوث التربة حيث يُؤدي ذلك إلى خبث الوسط البيئي الذي يمكن للنبات أن ينمو ويعيش ويتكاثر فيه؛ ولذا تضعف قدرة النبات على المقاومة فيموت، فتعطي النباتات الصالحة مكانها لنباتات شوكية تستطيع أن تتحمل الحياة في هذه الظروف القاسية، وهذه النباتات الشوكية أيضًا لها قدر خاص من العمر ثم تتحول الأرض إلى مناطق جرداء وتصبح صحراء لا نبت فيها ولا كلأ، وكلما نزل عليها المطر غار في أجوافها.

المبحث الثاني
سبل مواجهة تلوث البيئة الأرضية في الفقه الإسلامي

هذه هي الأرض وعاء لنعم الله المتعددة على الإنسان، ففيها صنوف الأرزاق، ومنها يأكل الإنسان والحيوان والطير، ومن واجبنا المحافظة عليها سليمة نافعة مفيدة.

ومن أبواب شكر النعم المحافظة على هذه النعم كخصوبة التربة، وألا نعرضها بتصرفاتنا لعوامل التعرية من رياح وسيول، وفي حالات البناء والحرث والرعي والاحتطاب والتعدين، علينا أن نتبع أساليب لا تُؤدي إلى تدهورها بل تُساعد على خصوبتها، وتحسينها، فإن التسبب في إفساد هذه النعمة العظيمة التي يعتمد عليها كثير من ضروب الحياة هو كفر بنعم الله تعالى، وحيث إن التصرف المؤدي إلى إتلاف التربة أو إفسادها يؤدي بالضرورة إلى إتلاف الحياة وإفسادها فهو بالضرورة يندرج تحت التحريم[2].

ومن ثم فإن علينا أن نعاملها بالاحترام الذي تستحقه المساجد، وأن نحافظ على بقائها طاهرة غير مدنسة أخذًا من قوله ﷺ: ((وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا))[3].

ففساد الأرض محظور وبلاء لا تستقيم معه الحياة، وبالنظر إلى مظاهر وأسباب تلوث الأرض يمكن القول: إن الفقه الإسلامي وضع الحلول والوسائل لتلاقي هذه الأسباب التي تحدث مشكلة تلوث البيئة الأرضية، ولما كان الإنسان له دخل في معظم هذه الأسباب، فلقد جعل الإسلام الإنسان مسؤولًا عن الأرض وعمارتها، ونظافتها، وأخبره بأنه سيأتي اليوم الذي تتكلم فيه الأرض حتى التراب الذي في أعماقها، يخبر عما حدث فوقه، فإذا أدى الإنسان المسؤولية، فإن إقرار الأرض سيكون لصالح الإنسان وإلا فلا، قال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾[4].

ولما كان الأمر بهذه الخطورة على الإنسان في الدنيا والآخرة، فلم يترك الإنسان وشأنه بل جاءت التوجيهات النبوية مرشدة لكيفية التعامل مع البيئة الأرضية لحمايتها من التلوث بالزراعة فقال ﷺ مرغبًا في الزراعة ومشيرًا إلى عظم الأجر والثواب لمن يعتني بالزرع والحرث: ((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة))[5]، وقال -صلوات الله وسلامه عليه- في معرض توجيهه للحث على الغرس والزرع لما له من فوائد على الحياة والأحياء في الدنيا، ولما له من عظيم الثواب والأجر في الآخرة:

(١) بحث بعنوان حماية البيئة من التلوث ودور أجهزة الأمن الصناعي، لشحاتة سليمان المليجي، منشور بمجلة كتاب العمل العدد ٤٦٦ مارس ٢٠٠٠م.

(٢) حماية البيئة في الإسلام، الاتحاد العالمي المصون، ص١١، ط: مطبعة الهيئة الملكية للجبيل وينبع - مدينة ينبع الصناعية السعودية.

(٣) سبق تخريجه ص٤٣.

(٤) سورة الزلزلة الآية: ٥١.

(٥) مجمع الزوائد، باب في الإبل ٤/ ٦٧، وأخرجه أبو الفضل السيد أبو المعاطي النوري المتوفى سنة ١٤٠١هـ في المسند الجامع برقم ٦٢٠.

((لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها))[1]. وفي هـذا الحديث النبـوي دلالات حضارية سـامية، منهـا: تقديس العمل، والحث على عمارة الأرض إلى آخر لحظات عمر الإنسان، وابتغاء النفع للبشرية جمعاء، وتحفيز على تحسـين البيئة، والعمل على توسـيع المسـاحات الخضراء لما لها من أهمية إسـتراتيجية في دعـم التوازن البيئي، فضلا عن تحقيق الأمـن الغذائي، ومن ثم فـإن فقهاء الإسـلام عنوا بهـذا الجانب الذي يعد من أهم سـبل مواجهـة تلـوث البيئة الأرضيـة فجعلوا له أبوابًا فقهيةً مسـتقلةً مثل باب المزارعة، وباب المغارسـة، وباب إحياء الموات، ورتبوا لها الأحكام الفقهية المناسبة التي تضمن للبيئة الأرضية سلامتها إذا ما روعيت تلك الأحكام.

وأرشـدت إلى التخلـص من مخلفات الإنتاج الـذي يحدث تلوثًا بالبيئـة الأرضيـة وأقرت الأسـاليب الحديثـة للتخلص من هذه الملوثـات مـع مراعاة ضابط سـلامة جميـع عناصر البيئـة، ومن الأساليب الحديثة التي أقرتها الشريعة الإسلامية ما يلي:

١- المصـب التقليـدي: وهـو مكان تلقـى فيه القمامـة ثم تغطى بالتراب بعيدًا عن المدينة والمياه الجوفية والأرض تكون بورًا.

٢- المصـب المرصـوص: وهو عبـارة عن خندق يتـم حفره مع الاحتفاظ بالتربة الناتجة على حواف ثلاثة أضلاع.

٣- مصب النفايات المسحوقة.

٤- التخلـص مـن القمامـة بتحويلهـا إلى أسـمدة إمـا بالتخمـر البطيء أو بالتخمر السريع[2].

وكل هذه الأساليب أقرتها الشريعة الإسلامية بموجب القاعدة الفقهية المقررة: أن الأصل في الأشياء الإباحة[3].

فحيـث لم يرد نهي عن شيء فإنه مباح، هذا إذا لم يقترن به سـبب يجعلـه واجبًـا كأن ينضم إليـه أن في الأخذ بهذه الأسـاليب رفع ضرر، ورفـع الـضرر واجـب، ومـا لا يتـم الواجـب إلا به فهو واجب، فالأخذ بهذه الأساليب واجب شرعًا.

هـذا بالإضافة إلى ما نص عليه في كتـب بعض الفقهاء صراحة، حيـث جاء في نهاية الرتبـة: «ويكلف من فتـح سرابًا وأخرج ما فيه من مخلفات الإنتاج السائلة أن ينقله إلى خارج البلد ويسوي موضع السراب ويعدل الطريق وينظفه من الأذى»[4].

(١) أخرجه الهيثمي، في مجمع الزوائد، باب اتخاذ المال ٢/ ٦٦.

(٢) حماية البيئة من التلوث ص٢٢.

(٣) الأشباه والنظائر للسيوطي ١/ ١٠٧ مرجع سبق ذكره.

(٤) نهاية الرتبة في طلب الحسبة ص١٤.

الفصل الرابع
مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

ويشتمل على مبحثين:
المبحث الأول: مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية.
المبحث الثاني: سبل مواجهة مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول
مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية

من المسلم به أن البيئة الطبيعية تتألف من عدة نظم مترابطة ترابطًا وثيقًا، ومن بين هذه النظم البيئة الحيوانية، وليس بخفي ما للحيوانات من دور كبير ومهم في تكوين البيئة، ونظرًا لهذه الأهمية نجد أن القرآن الكريم عني به حتى إن بعض سور القرآن سميت بها كسورة البقرة، وسورة الأنعام، وسورة الفيل، وسورة العاديات -وهي الخيل- وكلها من الحيوانات، ويلحق بالبيئة الحيوانية الحشرات حيث إن منها ما هو نافع، وما هو ضار، حتى إن الحيوانات الضارة في بعض الأحيان يكون في وجودها درء لمفسدة أعظم من مفسدة انقراضها، ومن جميل اهتمام القرآن أيضًا بالبيئة الحيوانية أنه سمى بعض سور القرآن بأسماء بعض الحشرات النافعة مثل سورة النحل، وسورة النمل، وسورة العنكبوت، وهذه التسميات بلا شك من دلائل اهتمام القرآن بالبيئة بشكل عام، وهذه التسميات لها دلالتها ولها إيحاؤها في نفس الإنسان المسلم وربطه بالبيئة من حوله بحيث لا يكون في عزلة أو غفلة عنها[1].

لكن قد يحدث وينسى الإنسان أو يتناسى هذا الاهتمام بالتوازن البيئي فيحدث تصرفًا عبثيًّا بالتلوث أو الإتلاف، يحدث بسببه اختلال بهذا التوازن البيئي، فعندما ينقرض أي نوع من الحيوانات فأثره يتعدى لغيره من سائر مكونات البيئة بما فيها الإنسان المستفيد الأول من سائر مكونات البيئة، حيث الارتباط الوثيق والموازنة بين أجزاء الكون وجزئياته من غير فرق بين أن يكون الملوث أو المتلف إنسانا أو غيره، في البر أو الجو، حيث يؤدي تخريب الغطاء النباتي والصيد غير المنظم، وتلوث الماء والهواء وغيرها إلى نقصان أعداد بعض الحيوانات وزيادة أعداد البعض الآخر، ويُوجد في كل نظام بيئي العديد من الحيوانات ذات التأثير البالغ والتي تشترك في الحلقات المكونة للتوازن، وقد تكون هذه التأثيرات إيجابية أو سلبية بغض النظر عن كون هذا الحيوان أو تلك الحشرة من النوع النافع أو الضار، فعلى سبيل المثال الأفاعي التي تسبب الخوف والهلع والرعب والتسمم أحيانا للإنسان أو الحيوان، فهي من هذا الوجه تحدث أثرًا سلبيًّا ضارًّا، لكن من وجهة النظر الأخرى قد يكون مفيدًا، فسم الأفعى من الأدوية ذات الفوائد الكبيرة، والذي يستعمل حاليا في علاج العديد من الأمراض، كما أن جلود الحيات من أفضل أنواع الجلود، ولها متانة وقدرة على البقاء وتضاهي الجلود الأخرى، ولا شك أن للأفاعي فوائد في خلق حالة التوازن في الطبيعة فهي تتغذى على الحشرات التي لو بقيت وتكاثرت لأثرت على حياة الإنسان، ومن بين الحيوانات الضارة التي تقضي عليها الأفاعي الفئران، وهكذا يحدث التوازن البيئي من خلال البيئة الحيوانية بما فيها الطيور والحشرات، فالتعامل مع هذه البيئة يجب أن يكون مدروسًا وموزونًا ومما لا شك فيه أن بعض الحيوانات السامة أيضًا لها فائدة أخرى من تطهير الأجواء من التلوث الحيواني نفسه كانتشار الحمى القلاعية وغيرها، فبعض الحيوانات الضارة تلتهم الطيور التي تنقل هذا الوباء والبعض الآخر كالحيوانات السامة تلتهم السموم من الهواء حالها حال الأشجار التي تأخذ ثاني أكسيد الكربون من الجو وتحوله إلى أكسجين -وسبحان الله الخالق العليم-.

هذا عن التوازن البيئي من خلال البيئة الحيوانية وإن كانت سامة أو ضارة، أما عن إحداث التوازن البيئي من خلال البيئة الحيوانية النافعة، فلقد بين الحق تبارك وتعالى أهميتها في آيات كثيرة، قال تعالى: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً

(١) رعاية البيئة في شريعة الإسلام، للدكتور يوسف القرضاوي، ص٥٤، ط: دار الشرق.

وَيَخْلُقُ مَـا لَا تَعْلَمُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾[2].

فالحيوانات بنوعيها من جملة الأشياء التي خلقها الله وأنزلها بقدر معلوم للحفاظ على التوازن البيئي، فالتعامل مع هذه الحيوانات عـلى غـير وفق ما أمر الله بـه يحدث اختلالًا يُـؤدي في النهاية إلى إحداث مشكلة كبيرة تُؤثر على المنظومة البيئية بأكملها.

المبحث الثاني
سبل مواجهة تلوث البيئة الحيوانية في الفقه الإسلامي

قبـل عـرض سـبل مواجهـة تلـوث البيئـة الحيوانيـة في الفقـه الإسـلامي لا يفوتني أن أسـجل هنـا أن تلوث البيئـة الحيوانية أمـر مؤرق لدرجة أدت بعض عواصم الدول الغربية إلى إنشـاء جمعيـات للرفق بالحيوان، ففي عام ١٨٢٤م أسسـت في إنجلترا أول جمعيـة للرفق بالحيوان في سـبيل إيجاد حلول لمشـكلة تلوث البيئـة الحيوانيـة، وما أن أسسـت أول جمعية للرفـق بالحيوان في إنجلـترا إلا وتـوالى انتشـار جمعيات في عواصم الـدول الغربية، وكان ذلـك مدعاة للفخـر لديهم، لكن بالرغم من انتشـار هذه الجمعيـات في المجتمعـات الغربية إلا أن الرفـق بالحيوان قضية لم تتحقـق إلى الآن في هذه المجتمعات بشـكل مـرضٍ، ولا يزال البيئيون يطالبون في المجتمعات الغربية بحقوق الحيوان واحترام قوانين البيئة[3].

ولعل السبب في هذا أن معظم هذه الجمعيات قائمة على مصالح ذاتية للقائمين عليها، أو مكاسـب وقتية بخلاف الرفق بالحيوان في الشريعـة الإسـلامية، فهـو ليس مجرد شيء قابـل للتنحي عن متطلباتـه مقابل مصالح فردية أو مكاسـب وقتية، فهو قائم على التعبـد لله -عـز وجل- وجزء لا يتجزأ عـن المنظومة الأخلاقية وسلوك المؤمن السوي.

وقد توسع علماء الإسـلام من السلف والخلف في التَّحدث عن الرفق بالحيوان في الإسـلام عملا بالأوامر الإلهية، والتوجيهات النبويـة الواردة في هذا الشـأن حيـث تكفلت القـدرة الإلهية بما يقوم على حفاظ سـلالات الكائنات جميعًا بما فيها الحيوان فقال جل شـأنه: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَـمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[4].

فهـذه الآية توضح حقائق المثلية في سـائر خلق الله، وأن احترام وجود هذه الكائنات ورعاية حقها في الحياة هو جزء من إصلاح الأرض وعمارة هذا الكوكب.

وها هو رسول الله ﷺ يقول لأصحابه: «بينما رجل يمشي بطريق اشـتد عليه العطش فوجد بئرًا فنـزل فيها وشرب ثم خرج، فإذا بكلـب يلهـث يأكل الثـرى من العطـش، فقال الرجـل: قد بلغ هـذا الكلب من العطش مثـل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه، ثم أمسـكه بفيه فسقى الكلب فشـكره الله فغفر له»، قالوا يـا رسـول الله: وإن لنـا في البهائـم لأجرًا؟ فقـال -صلوات الله وسلامه عليه-: «في كل ذات كبد رطبة أجر»[5].

وقـال ﷺ أيضًا: «عذبت امرأة في هرة حبسـتها فلم تطعمها ولم تسقها، ولم تتركها تأكل من خشاش الأرض»[6].

من هنا قال جمع من فقهاء الأمة بتحريم خصاء البهائم لما يلحقها بهذه العملية من التعذيب[7].

كما يحرم متابعة السـفر عليها دون أن تأخذ نصيبها من الراحة أو الحمل عليها بشيء يزيد عن طاقتها[8].

ولقـد قال الإمام الأعظم أبو حنيفـة النعمان: «لو ضرب الراعي شـاة ففقأ عينها أو كسر رجلها ضمن، وكذلك لو سـاق الأجير

(١) سورة النحل الآية: ٨.
(٢) سورة الحجر الآية: ٢١.
(٣) البيئـة في الإسـلام، تأليـف السـيد علي بن السـيد عبد الرحمن آل هاشـم، ص١١، بحـث مقـدم للمؤتمر العـام الخامس عشر لأكاديميـة آل البيت الملكية، سـنة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م نشر مؤسسة آل البيت الملكية للفكر الإسلامي.
(٤) سورة الأنعام الآية: ٣٨.
(٥) أخرجـه البخـاري في صحيحه، كتـاب: في اللقطة، باب: الآبار عـلى الطريق إذا لم يتأذ بها.
(٦) أخرجه الإمام مسـلم في صحيحه، برقم ١٥٠٧ كتاب: الكسوف، باب: ما عرض على النبي ﷺ في صلاة الكسوف من أمر الجنة والنار.
(٧) فقه السنة ٣/ ٥١٠ وما بعدها.
(٨) المرجع السابق نفس الصفحة.

المشترك أغنامًا وصعد بها جبلًا مرتفعًا، فتردت من موضع يمكن الاحتراز منه، فإنه يضمن»[1].

والنصوص الفقهية التي قررها فقهاء الإسلام في هذا النطاق أكثر من أن تحصى، ولعل ما دعا فقهاء الإسلام إلى القول بتحريم الصور السابقة من التعامل المنهي عنه مع الحيوانات هو: مراعاة مقصد الشريعة الإسلامية للكليات الخمس المتعارف عليها، وهي حفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض، ومما لا شك فيه أن الحيوانات تشكل ثروة اقتصادية هائلة، فالحفاظ عليها مقصد من مقاصد الشريعة، فما يصلح هذه البيئة الحيوانية في الفقه الإسلامي يكون واجبا أو مندوبًا بحسب درجة الإصلاح، وما يفسدها يكون حرامًا أو مكروها بحسب درجة الإفساد، وحيث إن التلوث يُعد ضررًا حيث يوصف اقتصاديًّا بأنه الزيادات التراكمية للعناصر الضارة بالبيئة[2] كما يوصف فقهيًّا بالضرر المستدام[3]، فإن التلوث يدخل في نطاق التحريم الشرعي، وفي المقابل فإن حماية البيئة تدخل في نطاق الوجوب الشرعي.

(١) من القيم الإنسانية في الإسلام، د/ محمد رجب بيومي.

(٢) الاقتصاد الجزئي، لجر هولتن ولسن، ترجمة د/ سليمان العائي، ص٥٧٠، نشر دار المريخ بالسعودية.

(٣) المنتقى شرح موطأ الإمام مالك، للباجي، ص٤١، ط: دار الكتاب العربي.

الفصل الخامس
مشكلة تلوث البيئة النباتية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة النباتية.

المبحث الثاني: سبل مواجهة مشكلة تلوث البيئة النباتية في الفقه الإسلامي.

المبحث الأول
مشكلة تلوث البيئة النباتية

إن مما لا شك فيه أن النبات مخلوق لله تعالى وهو يشترك مع بقية المخلوقات الأخرى الموجودة على الأرض، وله دور كبير في إحداث التوازن البيئي عملًا بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[4].

فالنباتات والأشجار من نعم الله تعالى على الإنسان، فهي وسيلة للمواد الغذائية اللازمة للإنسان والحيوان، ولها أهمية قصوى في تخليص البيئة من ثاني أكسيد الكربون، وفي إنتاج الأكسجين الذي بدونه لا يستطيع الإنسان الحياة، وبظل الأشجار يستطيع الإنسان وقاية نفسه من حرارة الشمس وللأشجار أيضًا فوائد مهمة في حماية النباتات في الأرض الصحراوية حيث تعمل كمصد للرياح، وتحمي الإنسان والحيوان من التيارات الهوائية، كما أن الأشجار لها دور كبير في المناطق الصناعية والمدن السكنية التي تحيط بها الجبال أو الصحاري حيث تقوم الأشجار المحيطة بهذه الأماكن بتقليل كمية الأتربة والمواد الملوثة الموجودة بالهواء حيث تعمل كمصفاة؛ لذلك لجأت كثير من المدن إلى عمل ما يسمى بالحزام الأخضر حولها، كما أن الأشجار تعمل على تقليل وجود ظاهرة التصحر التي تهدد كثيرًا من الدول، فهي تقوم بدور مصد للرياح الذي يعمل على تثبيت الرمال ومنع زحفها، وانخفاض الرقعة الزراعية، ومن فوائد الأشجار أيضًا أنها تقوم بخفض درجة الحرارة وبخفض سرعة التيارات الهوائية

(٤) سورة القمر الآية: ٤٩.

الصناعية والهابطة وتقوم بدور مهم في تعديل المناخ، كما أن النبات يضفي على الجو نسبة من الرطوبة نظرًا لأن النباتات تقوم بعملية النتح الذي يخرج في صورة جزيئات صغيرة من المياه التي تتوزع في الجو، وتحيط المناطق المزروعة(١).

وغير هذا الكثير والكثير من الفوائد التي تعود على الإنسان والحيوان وسائر مكونات البيئة من المحافظة على الأشجار والنباتات وزيادة نموها والتوسع في زراعتها، وعدم الاعتداء عليها.

ومع التسليم بهذا كله إلا أن الاستغلال الخاطئ من قبل الإنسان للبيئة النباتية يحدث مخاطر بيئية تواجه العالم أجمع، بل إن مشكلة الانحباس الحراري تعود إلى تجاوز الإنسان في كل مكان مواثيق العدالة في حق اللون الأخضر، وهكذا يحدث الاختلال في التّوازن البيئي.

المبحث الثاني
سبل مواجهة مشكلة تلوث البيئة النباتية في الفقه الإسلامي

بعد الوقوف على الفوائد العظيمة الناتجة عن وجود النبات والشجر ودوره الكبير في إحداث التوازن البيئي، وكون إهماله والاعتداء عليه يحدث خللا في هذا التوازن البيئي، مما يُؤدي بدوره إلى انقراض الإنسان والحيوان، فإنه والحالة هذه لا غرابة في أن يعتني الإسلام بالحفاظ على النبات ويحرم قطع الأشجار، فها هو رسول الله ﷺ يقول: ((من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار))(٢). ويقول الرسول ﷺ مرغبًا في الزراعة ومشيرًا إلى عظيم الأجر والثواب لمن يهتم بالزرع والحرث: ((من نصب شجرة فصبر على حفظها والقيام عليها حتى تثمر كان له في كل شيء يصاب من ثمرتها صدقة عند الله -عز وجل-))(٣).

وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا: ((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السبع منه فهو له صدقة))(٤).

وقال صلوات الله وسلامه عليه في معرض توجيهه للحث على الغرس والزرع لما له من فوائد على الحياة والأحياء في الدنيا، ولما له من عظيم الثواب والأجر في الآخرة: ((لو قامت القيامة على أحدكم وفي يده فسيلة فليغرسها))(٥).

وفي هذا الحديث النبوي الشريف تتجلى حكمة الإسلام في زيادة الرقعة الزراعية وتوسيع مساحات الأرض الخضراء، ولم تعهد البشرية قبل الإسلام دينا يأمر أتباعه بغرس شجرة والحرص على ذلك حتى لو قامت القيامة، وبفضل هذه التّوجهات النبوية عُني الفقهاء في جميع الأعصار والأمصار بالاهتمام بهذا الجانب من جوانب البيئة، فوضعوا نظامًا دقيقًا لتنمية هذا الجانب بدءًا باستصلاح الأراضي وتعهدها بالغرس والزرع والسقي مراعين في ذلك الضوابط التي تقوم عليها العلاقة بين العامل ورب الأرض، وشروط التملك في الأرض الفضاء، وعقدوا لذلك كله أبوابًا فقهية مشتهرة كل باب ينتظم جانبا بعينه نحو الزرع والتشجير، ففي جانب التملك وزيادة الرقعة الزراعية عقدوا بابا فقهيًّا يسمى إحياء الموات، وفي جانب الحرث وإلقاء البذر والغرس عقدوا بابا يسمى باب المزارعة والمغارسة، وفي جانب تعهد الزرع والشجر بالسقي والخدمة عقدوا بابًا يسمى باب المساقاة، وفي جانب تسويق الحبوب والمحاصيل والفواكه والثمار عقدوا أبوابًا كثيرة منها الوكالة والبيع والشراء وغيرها.

ولم يقف الأمر في الحفاظ على البيئة النباتية من قبل الفقه الإسلام عند هذا الحد من النظام الدقيق لزيادة الثروة النباتية في حال السلم فقط، وإنما بلغ من عناية الفقه الإسلامي أن حرم قطع الأشجار والاعتداء على النبات في الحرب أيضًا، فمن روائع الآثار التي وردت في حماية الأشجار والبيئة النباتية، ما

(١) رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة، ص٥٥

(٢) أخرجه أبو داود في سننه برقم ٤٥٦١، باب: في قطع السدر.

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٥٩٩١، باب: حديث من شهد النبي ﷺ. والبيهقي في شعب الإيمان برقم ٣٣٤٣، باب: من نصب شجرة وصبر على حفظها والقيام عليها.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب: المزارعة، باب: فضل الزرع والغرس إذا أكل منه.

(٥) أخرجه الإمام أحمد في مسنده برقم ١٢٥١٢، باب: مسند أنس بن مالك -رضي الله عنه-.

جاء في وصية سيدنا أبي بكر الصديق -رضي الله عنه- ليزيد بن أبي سفيان عندما بعثه على رأس جيش إلى الشام: «ولا تقطعن شجرًا مثمرًا ولا تحرقن نخلًا ولا تفرقنه»[1].

وهكذا استطاع الفقه الإسلامي معتمدًا على الأوامر الإلهية والتوجيهات النبوية والمقاصد الشرعية القضاء على مشكلة تلوث البيئة النباتية.

(١) أخرجه الإمام مالك في الموطأ برقم ٨٥٨، باب: النهي عن قتل النساء والولدان في الغزو.

الفصل السادس
نماذج تطبيقية لحماية البيئة

ويشتمل على مبحثين:

المبحث الأول: نماذج تطبيقية لحماية البيئة في الإسلام.

المبحث الثاني: نماذج تطبيقية لحماية البيئة في العصر الحاضر من قبل الجهات المختصة والموقف الإسلامي منها.

المبحث الأول
نماذج تطبيقية لحماية البيئة في الإسلام

بعد التأمل في سبل مواجهة الفقه الإسلامي لمشكلة تلوث البيئة التي تم الوقوف عليها في الفصول السابقة يتضح لنا جليا: أن الإسلام الحنيف عُني عناية خاصة بنظافة البيئة وحمايتها؛ لأنها المحل الذي يقيم فيه الإنسان ويحصل فيه على احتياجاته ويمارس فيه عبادته وأعماله التي تعينه على مواجهة متطلبات الحياة، وقد اعتمد المنهج الإسلامي في حماية البيئة على عدة أمور كلية من أهمها ما يلي:

أولا: أن حماية البيئة من شعب الإيمان:

فها هو رسول الله ﷺ يقرر أن حماية البيئة من التلوث من شعب الإيمان في تمثيله ﷺ الرائع لصورة من أبسط وسائل الحماية في قوله: ((الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، أفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق))[2].

ثانيًا: حماية البيئة من التلوث من مقاصد الشريعة حيث إن مقصود الشريعة الإسلامية يتمثل في المحافظة على مقومات الحياة الخمس وهي: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وهذا باتفاق الفقهاء[3]. ومن المعروف أن تلوث البيئة يضر بهذه المقومات، والضرر منهي عنه شرعًا، كما يقول الرسول ﷺ: «لا ضرر ولا ضرار»[4]، كما يُؤدي التلوث إلى إفساد هذه المقومات

(٢) أخرجه الإمام مسلم في صحيحه برقم ٥١ كتاب: الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان.

(٣) فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء لأحمد عبد الرازق الدويش ١٧/ ١٨٦ نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

(٤) الموطأ للإمام مالك، باب: القضاء في المرافق، ص٤٤٨ ط: دار الشعب.

والفساد منهي عنه شرعًا، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾[1].

والحكم التكليفي في الإسلام مبني على هذه المقاصد الشرعية، فما يصلح هذه المقاصد الخمس يكون واجبًا أو مندوبا بحسب درجة الإصلاح، وما يفسد هذه المقاصد يكون حرامًا أو مكروها حسب درجة الإفساد.

من هنا جاءت التوجيهات النبوية بنظافة الجسد للمحافظة على النفس حيث قال ﷺ: ((خمس من الفطرة: الختان، والاستحداد، ونتف الإبط، وتقليم الأظافر، وقص الشارب))[2].

ولم تقتصر عناية الإسلام بالنظافة على نظافة الجسد فقط، بل اتسعت الدائرة لتشمل نظافة البيوت والطرقات، فالنفس تنشرح للمكان النظيف وتنقبض لمنظر القذارة؛ ولذلك حث الرسول ﷺ على نظافة البيوت فقال: ((إن الله طيب يحب النظافة جواد يحب الجود فنظفوا أفنيتكم ولا تشبهوا باليهود))[3].

وقد وردت في ذلك نصوص عامة مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[4]، وتستهدف دعوة الإسلام إلى نظافة البيوت، المحافظة على الصحة العامة؛ لأن تراكم الأوساخ في البيوت يعطي الحشرات والجراثيم مجالًا رحبًا للانتشار والتكاثر، فضلا عن انبعاث الروائح الكريهة التي تزكم الأنوف، وتجعل البيوت مكانا غير صالح للإقامة فيه.

ثالثًا: إرساء الإسلام لمبدأ سد الذرائع إلى الفساد أيًّا كان نوعه.

من القواعد الأصولية المهمة أن درأ المفسدة مقدم على جلب المصلحة[5].

وإعمال هذه القاعدة فيه تعبيد للتعامل مع البيئة بما يدرأ عنها المفسدة إبان التصرف السيئ في المباحات، أو الحقوق فضلا عن المجاوزة والعدوان، وهو مبدأ عظيم الأثر في توثيق مصالح الأمة ماديًّا ومعنويًّا بما يشمل موارد البيئة الطبيعية، فيندرج تحت مضمون هذا المفهوم الحفاظ على البيئة.

رابعًا: إن الإسلام تناول بالتنظيم والتأصيل عقودًا مهمة تتصل باستثمار الأراضي مثل: عقد السلم والمزارعة والمساقاة وإحياء الأرض الموات وغيرها مما يعد دليلا بينًا على أن الإسلام أولى عناية بهذه الموارد الطبيعية؛ ليجعل من الأرض جنة الدنيا، زراعة وغرسًا وعمارة، وفي هذا كله حماية للبيئة من التلوث أو الانهيار.

خامسًا: تأكيد الإسلام على دور الفرد والأمة في الحفاظ على البيئة وحمايتها:

لم يقتصر الإسلام على تعداد الكثير من الموارد الطبيعة في هذا الكون ولم يكتفِ ببيان أهميتها وأن حمايتها واجب شرعي على سبيل الإجمال بل حدد لكل فرد دوره في القيام بهذا الواجب فبين أن للفرد دوره بمفرده ودوره من خلال الجماعة وما يجب على ولاة الأمور للمحافظة على البيئة وحمايتها على النحو التَّالي:

أ- واجب الأفراد:

بين الإسلام أن حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها واجب ديني شخصي يلتزم به كل فرد مسلم بموجب مسؤوليته الفردية عن رعاية نفسه ومجتمعه تجاه ربه، قال تعالى: ﴿ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾[6].

ولتمام القيام بهذا الواجب: يلزم قيام جماعة من أهل الخبرة والمعرفة بتوعية الأفراد بكل الوسائل وعلى جميع المستويات إلى الالتزام بالآداب والأخلاق الإسلامية في التعامل مع الطبيعة والبيئة ومواردها استثمارًا وانتفاعًا وتنمية.

ب - واجب الأمة:

لقد أوضح الإسلام أن من واجب الأمة لحماية البيئة أن تفهم أن

(١) سورة الأعراف الآية: ٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه برقم ٥٨٨٩، كتاب: اللباس، باب: قص الشارب.

(٣) ينظر: مشكاة المصابيح ٢/ ٥١٦ لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزي، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني ط٣، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م.

(٤) سورة البقرة الآية: ٢٢٢.

(٥) الأشباه والنظائر ١/ ١٦١ مرجع سبق ذكره.

(٦) سورة القصص الآية: ٧٧.

الله وحده هو مالك الأرض ومن فيها، وأن العباد لا يملكون سوى الانتفاع بها على الوجه المأمور به شرعًا، وأن حق الانتفاع هذا حق مشترك بين أفراد المجتمع، ومن حق كل فرد أن ينتفع من المورد المشترك بقدر حاجته دون أن يعطل أو يبطل حق انتفاع الآخرين، كما يجب على الأمة جميعها أن تقيم الأمور كلها في الإسلام على أساس ما تُؤدي إليه من المصالح والمفاسد، وفي هذا المعنى يقول الإمام ابن تيمية -رحمه الله-: «الواجب تحصيل المصالح وتكميلها، وتبطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضا كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناها، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناهما هو المشروع»[1].

ويجب على الأمة أيضًا أن تراعي أن من ضوابط حماية البيئة العمل بمقتضى الأولوية في المصالح من حيث الأهمية، فالمصالح الضرورية تقدم على المصالح الحاجية، والحاجية تقدم على المصالح التكميلية التحسينية عند التعارض.

جـ - واجب ولاة الأمور:

إن واجب ولي الأمر ومعاونيه من السلطات الإدارية والبلدية والقضائية، العمل على تحقيق المصالح العامة ودرء المفاسد عن المجتمع ككل، ومن ذلك حماية البيئة ومواردها والمحافظة عليها وتنميتها، وهذا واجب إسلامي؛ ولهذا نجد أن ولاية الحسبة من أهم المؤسسات الشرعية من ناحية السبق التاريخي لحماية البيئة في نطاق واجب ولاة الأمور نحو حماية البيئة؛ لأنها جهة حكومية كانت تكلف تكليفًا خاصًّا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فالمحتسب ينبغي أن يكون فقيهًا عارفًا بالأحكام الشرعية المتعلقة بوظيفته، وتتضمن مسؤوليته مراقبة الأسواق والطرقات والمباني ومجاري المياه وغيرها، ومن ضمن هذه المسؤولية الإشراف على المقاييس والمواصفات المتعلقة بالأمن والنظافة، وإزالة الفضلات والنفايات، ودرء الأخطار والأضرار ومنع العدوان على الحمى، والنهي عن إيذاء الحيوانات وإساءة معاملتها، وكان مسؤولا عن تقدير الأضرار ووضع التعازير والعقوبات المناسبة لها، وإضافة إلى ذلك كانت له سلطة تقديرية واسعة لأخذ التدابير اللازمة لتحقيق المصالح العامة[2].

والتراث الفقهي حافل بكثير من النصوص الفقهية التي توضح دور المحتسب في حماية البيئة منها: ما جاء في الأحكام السلطانية لأبي يعلى: «وللمحتسب أن يمنع أرباب السفن عن حمل ما لا تسعه ويُخاف منه غرقها؛ ولذلك يمنع من المسير عند اشتداد الريح، وإذا حمل فيها الرجال والنساء يحجز بينهم بحائل، وإذا اتسعت السفن نصب للنساء مخارج للبراز؛ لئلا يتبرجن عند الحاجة وإذا كان في أهل الأسواق من يختص بمعاملة النساء راعى المحتسب سيرته وأمانته، فإذا تحققها منه أقره على معاملتهن، وإن ظهرت منه الريبة وبان عليه الفجور، منعه من معاملتهن، وأدبه على التعرض لهن.

وإذا وضع الناس الأمتعة وآلات الأبنية في مسالك الشوارع والأسواق ارتفاقًا لينقلوه حالا بعد حال، مكنوا منه إن لم يستضر به المارة، ومنعوا منه إن استضروا به، ويمنعهم من إخراج الأجنحة، والساباطات ومجاري المياه، وآبار الحشوش سواء أضر أم لم يضر، كما يمنع البناء في الطريق»[3]. وغير هذا النص الكثير والكثير لكن أكتفي به؛ لضيق المقام.

هذه بعض من النماذج التي طبقها الإسلام لحماية البيئة بالإضافة إلى إقراره الوسائل الحديثة والاتفاقيات الدولية من أجل حماية البيئة في حدود الضوابط الشرعية التي تتضح في المبحث القادم -إن شاء الله تعالى-.

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية، ١/ ٤٦ط١، نشر وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية ١٤١٨هـ.

(٢) حماية البيئة في الإسلام ص٢٥.

(٣) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص٢٢٠، ط: دار الكتب العربية - بيروت.

المبحث الثاني
نماذج تطبيقية لحماية البيئة في العصر الحاضر من قبل الجهات المختصة والموقف الإسلامي منها

إن العالم المعاصر لا يزال يبحث عن التشريعات والتنظيمات والاتفاقيات التي تضمن حماية البيئة من التلوث، فعقدت المؤتمرات والندوات من أجل إيجاد حلول لمنع التلوث البيئي وضمان الحماية من خلال توجيهات المؤتمرات الدولية الكثيرة التي منها على سبيل المثال:

١- المؤتمر البيئي الذي عقد في مدينة كيوتو اليابانية أواخر ١٩٩٧م والذي عرف فيما بعد بمعاهدة كيوتو حيث وقع اتفاق ينص على تقليص انبعاث الغازات مثل ثاني أكسيد الكربون والتي يتوقع أنها السبب في ظاهرة الاحتباس الحراري والتي تسبب تغير المناخ الذي يشهده العالم وتدخل الاتفاقية حيز التنفيذ إذا صادق عليها خمس وخمسون دولة مسؤولة عن انبعاث ٥٥٪ من الغازات الملوثة، علما بأن الولايات المتحدة الأمريكية رفضت المصادقة على هذه المعاهدة على الرغم من أنها أكثر الدول انبعاثًا للغازات حسب مصادر عدة[١].

٢- كما عقد مؤتمر بون بألمانيا عام ٢٠٠١م في محاولة لإنقاذ معاهدة كيوتو الخاصة بظاهرة الاحتباس الحراري.

٣- مؤتمر الأمم المتحدة للمناخ في مدينة مراكش المغربية، وقد حضر مندوبو مائة وثمانين دولة هذا المؤتمر، وكان هدفه تعزيز معاهدة كيوتو شأنه في ذلك شأن مؤتمر بون السابق.

٤- ومن المؤتمرات المهمة أيضًا في هذا الشأن مؤتمر القمة العالمية للتنمية المستدامة والذي عقد في جنوب إفريقيا في مدينة جوهانسبرج عام ٢٠٠٢م وقد حضره أكثر من مائة وخمس وستين دولة.

٥- مؤتمر البيئة في (أبو ظبي بالإمارات العربية) وقد ركز المؤتمر على تنمية مصادر النقل الصديقة للبيئة[٢].

كما عقدت عدة اتفاقيات بيئية دولية وقد شاركت فيها جميع الدول الإسلامية بلا استثناء وكانت الدول الإسلامية ترفض أن تدفع ثمن تلوث البيئة؛ لأن مؤتمر ريودي جانيرو والمنعقد في البرازيل عام ١٩٩٢م والذي أطلق عليه قمة الأرض وحضره مائة وخمس وثمانون دولة، وقامت على تنظيمه الأمم المتحدة كان يهدف إلى تكليف دول الخليج وغيرها من الدول المنتجة للنفط دفع ضريبة الكربون، ومنع الدول الغابية من قطع الأشجار، وقد تناست الدول الصناعية وعلى رأسها الولايات المتحدة الأمريكية التي رفضت التوقيع على الاتفاقيات أنها مصدر التلوث الإشعاعي ومصدر تدمير طبقة الأوزون بفعل منتجاتها الكيميائية المدمرة[٣].

وكان قد سبق هذه المؤتمرات جميعها عقد اجتماع للجنة التعاون البيئي بدول مجلس التعاون الخليجي في الدوحة لمواجهة التحديات البيئية المستجدة في المنطقة وذلك في يوم ١٦/ ٤/ ١٩٨٥م وقد توصلت اللجنة إلى قرارات من أهمها:

أ- وضع نظام أساس لحماية البيئة يتضمن القواعد الأساسية للمحافظة على البيئة وحمايتها وتلتزم به كافة الدول الأعضاء.

ب- وضع سياسة واضحة المعايير لمعالجة المشاكل البيئية تستهدف حماية البيئة من التلوث والمحافظة على الموارد الطبيعية والبشرية.

جـ- إنشاء واستكمال الأجهزة التشريعية والتنسيقية ودعم الأجهزة التنفيذية المناط بها تنفيذ أنظمة ومقاييس وقواعد حماية البيئة.

د- مراعاة احتياجات البيئة وإعطاؤها أولويات متقدمة.

هـ- اعتماد مبدأ التقييم البيئي للمشاريع[٤].

غير أن هذه القرارات لم تدخل حيز التنفيذ ولم تكن سوى أطروحات نظرية، ولعل السبب في ذلك عوامل منها ما يلي:

١- الخلافات العربية التي تمنع اتخاذ موقف عربي موحد إزاء قضايا البيئة وغيرها من القضايا المصيرية.

(١) رعاية البيئة من التلوث، ص١٨٢- ١٨٣.
(٢) رعاية البيئة من التّلوث، ص١٨٣-١٨٦.
(٣) حماية البيئة الخليجية، ص١٤٢-١٤٤.
(٤) حماية البيئة الخليجية، ص١٤٢-١٤٣.

٢- وجود إسرائيل في قلب الوطن العربي بحيث توجهت كافة الجهود العربية نحو معركة المصير العربية الإسرائيلية وحاليًّا نحو الحل السلمي الشرق أوسطي مما يقف حائلا في وجه المشاريع التنموية العربية.

٣- الانعدام شبه الكامل للتربية والإعلام البيئي، وجهل العامة لمشكلة التلوث البيئي.

الموقف الإسلامي من الاتفاقيات الدولية:

إن من واجب الحاكم المسلم أن يُحافظ على البيئة وأن يلتزم بتطبيق جميع الاتفاقيات الدولية التي تحافظ على البيئة وليس فيها ما يتعارض مع النصوص الشرعية والقواعد الكلية في الشريعة الإسلامية، وليس فيها ضرر على موارد الأمة، وليس فيها ظلم لأحد، وهذا من العمل بالسياسة الشرعية، ومن القواعد الفقهية المهمة في ذلك قاعدة: «تصرف الإمام على الرعية منوط بالمصلحة»(١).

وهذه القاعدة مهمة جدًّا وأساسية؛ لأنها ذات مساس بالسياسة الشرعية، وتنظيم الدولة الإسلامية إذ تضع حدًّا للحاكم في تصرفاته، وأيضًا لكل من يتولى أمرًا من أمور المسلمين(٢).

ولهذه القاعدة سند في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾(٣).

وعن معقل بن يسار -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ((ما من عبد يسترعيه الله رعية فلم يحطها بنصحه لم يجد رائحة الجنة))(٤).

ولهذه القاعدة فائدة كبيرة في مجال التعامل مع البيئة الطبيعية لحمايةموارده من التلوث إذ يكون للإمام عند الترخيص بإقامة مشروع ما خاصًّا كان أو عامًّا زراعيًّا أو صناعيًّا أو عالميًّا الاشتراطات والضمانات التي يرى أنها كفيلة بحماية البيئة من التلوث واستنزاف مواردها.

ومن هنا فقد عُني مجمع الفقه الدولي المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي في مجلسه المنعقد في دورته التاسعة عشرة بالشارقة بدولة الإمارات العربية المتحدة في الفترة من ٢٦ إبريل إلى الأول من مايو سنة ٢٠٠٩م بالنظر في الاتفاقيات الدولية الخاصة بمجال حماية البيئة، وبعد اطلاعه على البحوث الواردة بخصوص هذا الموضوع واستماعه إلى المناقشات التي دارت حوله قرر ما يلي:

١- أن بيئتنا التي أنعم الله علينا بها ومنحنا إياها يتعين علينا أن نسعى لحمايتها والمحافظة عليها؛ لتؤدي دورها كما أراد الله.

٢- يحرم الإسلام كل أسباب الفساد الحسي، ومنه تلويث البيئة، حماية لها أو صيانة لحق الإنسان من الضرر الذي يلحق عناصر البيئة التي تقوم حياته عليها.

٣- يجب على ولي الأمر أن يعاقب المخلين بالبيئة تعزيرًا بما يردعهم ويكف شرهم.

٤- يجب على الدولة الإسلامية أن تلتزم بجميع الاتفاقيات الدولية إذا لم يكن فيها تعارض مع الشريعة الإسلامية، ولم يكن فيها ضرر على موارد الأمة، وهذا من العمل بالسياسة الشرعية.

وإتمامًا للفائدة أرى أنه من المناسب هنا ذكر الوسائل المعاصرة المتاحة لحماية البيئة ورعايتها والتي منها ما يلي:

التشجير والتخضير -إحياء الموات- المحافظة على الموارد - الحفاظ على صحة الإنسان- الإحسان إلى البيئة- المحافظة على البيئة من الإتلاف.

وأرى أنه من المناسب هنا أيضا الإشارة إلى الحماية البيئية من التلوث السمعي أو الضوضائي حيث إن التلوث السمعي من موضوعات الساعة وتزداد أهمية خطورته بصفة مستمرة؛ لأنه يتعلق بمشكلة جديدة تضاف إلى مشاكل العصر نتيجة للتقدم العلمي الهائل في مجال التقنية الصناعية، وما يحدث في الإعلام بكل وسائله وأنواعه، وارتفاع الأصوات وما يحدث من ضجيج في قاعات الأفراح وغيرها، ولقد اعتمدت الحماية التقنية للبيئة

(١) الأشباه والنظائر، لابن نجيم ص١٢١.
(٢) الإسلام وحماية البيئة من التلوث، ص٢٢٨.
(٣) سورة النساء الآية: ٥٨.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: الإيمان، باب: استحقاق الوالي الغاش لرعيته النار.

من التلوث الضوضائي الناتج عن الثورة الصناعية على عدة طرق من أهمها:

١- تصميم آلات وماكينات أقل ضوضاءً وصوتا، وإجراء تعديلات في تصميمها تقلل من أصواتها، ووضع صمامات لمنع خروج الأصوات المزعجة منها.

٢- يمكن منع أو تقليل الضوضاء بوضع مواد عازلة للصوت على جدران المكان حتى تُساعد على امتصاص جزء من ضجيج الآلات.

٣- استخدام حاميات لحاسة السمع عند العمال بوضع واقي أذن أو سماعات تقلل من الضوضاء، وتمنع وصولها إلى الأذن الداخلية.

هذا عن الحماية التقنية للبيئة من التلوث السمعي الناتج عن الصناعة، أما عن الحماية البيئية من التلوث السمعي الناتج عن وسائل الإعلام، أو ارتفاع الأصوات وما يحدث في قاعات الأفراح، فللفرد نفسه دور كبير في حماية نفسه والبيئة المحيطة به من هذا النوع من التلوث عن طريق التزامه بآداب الإسلام في السلوك، والتعامل مع الطبيعة ووسائل الإعلام وتوجيه قاعات الأفراح إلى تجنب الضوضاء وهو قيمة سامية ومظهر للحضارة الإسلامية، حرص ديننا الحنيف على تأكيده والدعوة إليه.

كما لا يفوتني أن أنوه إلى دور وسائل الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة في مواجهة تلوث البيئة، فمما لا شك فيه أن هذه الوسائل لها دور كبير في حماية البيئة عن طريق نشر الندوات والمؤتمرات والاتفاقيات المتعلقة بالبيئة وتوعية الإنسان وتثقيفه بما يجب عليه تجاه البيئة.

الخاتمة

الحمد لله وكفى، وصلاة وسلامًا على عباده الذين اصطفى وبعد:

فها هي نتائج وتوصيات هذا البحث أوردها على النحو التالي:

أولًا: النتائج

١) البيئة: هي المحيط المادي الذي يعيش فيه الإنسان بما يشمل الماء، والهواء، والفضاء، والتربة والكائنات الحية، والمنشآت التي أقامها لإشباع حاجاته، وهذا التعريف هو أقرب التعاريف وأنسبها.

٢) جميع مكونات البيئة خلقها الله مسخرة لمنفعة الإنسان، فله أن يستفيد منها بشرط المحافظة على نقائها وطهارتها، وتجنب إفسادها وتلوثها.

٣) هذه المكونات البيئية قد تكون فيها منفعة إذا أحسن الإنسان الاستفادة منها وانقاد لأوامر خالقها، وقد تكون أداة عذاب إذا تكبر واستكبر على من أوجدها، أو أساء التعامل معها ولم يؤدِّ شكرها.

٤) التوازن البيئي يُعد ظاهرة مهمة في عناصر الحياة، ويعد السر في استمرارها بالحفاظ على وجود الكائنات الحية، وفق منظومة قدرها الخالق -عز وجل- بدقة عجيبة.

٥) يرتكز الحل الإسلامي لمشكلة تلوث البيئة على أمرين أساسيين هما:

أ) المبادئ الوقائية التي إذا التزم بها فلن توجد المشكلة أصلا.

ب) التشريعات الحازمة للمنتهكين للمبادئ الوقائية.

٦) المحافظة على البيئة ومعاقبة المعتدين عليها وفق القواعد الفقهية المقررة في هذا الشأن واجب شرعي.

٧) المحافظة على البيئة المائية محل اتفاق بين الفقهاء بنصوص القرآن والسنة، وإن اختلفت وسيلة المحافظة وعقوبة الانتهاك.

٨) لقد استطاع الفقه الإسلامي مواجهة مشكلة تلوث البيئة الهوائية أو الجوية عن طريق عدة إجراءات من بينها:

أ- الإجراء الوقائي.

ب- إجراءات التحكم والرقابة.

ج- الإجـراء القانوني المتمثـل فيما يجب على القاضي الحكم به في القضايا المتعلقة بتلوث البيئة.

٩) يُعـد بـاب إحياء المـوات، والمزارعة والمغارسـة أبوابًـا فقهيةً مهمةً للقضاء على مشكلة تلوث البيئة الأرضية على وجه خاص والبيئة بصفة عامة.

١٠) أقرت الشريعة الإسلامية الأساليب الحديثة لمواجهة تلوث البيئـة الأرضية بـل وأوجبت العمل بها إذا اقـترن بها ما يوجب العمل بها.

١١) الحفاظ على البيئة الحيوانية مقصد مهم من مقاصد الشريعة الإسـلامية، فما يُصلح هذه البيئة يكون واجبًا أو مندوبًا بحسب درجة الإصلاح، وما يفسـدها يكون حرامًا أو مكروهًا بحسب درجة الإفساد.

١٢) الفقه الإسلامي عُني عنايةً فائقةً بالحفاظ على البيئة النباتية، وحرم الاعتداء عليها حتى في حال الحرب فضلا عن السلم.

١٣) اعتمد المنهج الإسـلامي في حماية البيئة على عدة أمور كلية منها:

أ- حماية البيئة بصفة عامة من شعب الإيمان.

ب- تُعد حماية البيئة بصفة عامة من مقاصد الشريعة الإسلامية.

ج- إرساء الإسلام لمبدأ سد الذرائع إلى الفساد أيا كان نوعه.

د- تأكيد الإسلام على دور الفرد والأمة وولاة الأمور في الحفاظ على البيئة وحمايتها.

١٤) الاتفاقيات الدولية بشأن المحافظة على البيئة واجبة النفاذ، والعمـل بمقتضاها في الشريعة الإسـلامية يـأتي فيما لا يتعارض مـع النصـوص الشرعيـة والقواعد الفقهيـة الكليـة، وليس فيه ضرر عـلى مـوارد الأمـة، ولا ظلـم لأحـد، وهذا كلـه من باب العمل بالسياسة الشرعية.

ثانيًا: التوصيات

وأهدف من سـوقها الحث على التحلي بـآداب التعامل مع البيئة بـكل عناصرها اسـتثمارًا، وانتفاعًـا، وتنمية، وحفظـا، وتعاملا وهى كثيرة جدًّا أوجزها فيما يلي:

١) تدريـس مادة خدمة البيئة والمجتمع في جميع مراحل التعليم؛ لغرس فكرة العناية بالبيئة لدى الناشئة.

٢) تشـجيع البحوث التـي تتصل بموضوعـات البيئة، والعمل على نشرها.

٣) الاهتـمام الإعلامي عـن طريق تقديم برامـج وأفلام لمعالجة مشكلات البيئة.

٤) بنـاء المصانع بالصحـراء بعيدًا عن العمـران، ونقل الموجود منها من داخل المدن.

٥) عمل مشروع قومي للتشجير.

٦) اسـتخدام المسـاجد والكنائـس في التوعية بدور الإنسـان في البيئة من ناحية تلوثها وحمايتها.

٧) تفعيـل دور الحسـبة والاهتـمام بقضايـا البيئـة أمـام الجهات المعنية.

٨) بنـاء وتنميـة سـياحة بيئية مسـتدامة من خـلال التعاون بين القطاعين العام والخاص.

٩) تشـجيع سـكان المناطـق وإرشـادهم لاسـتغلال الأراضي المجـاورة للمناطـق المحمية، وإقامة مشـاريع اسـتثمارية صغيرة توفر احتياجات السائح.

١٠) وضع إستراتيجية لاستخدام الموارد الطبيعية.

١١) العمـل عـلى أهمية تطويـر أدوات وتنفيـذ القوانـين البيئية لضمان عملية التنمية المستدامة.

١٢) تحفيز المواطنين على المشـاركة في برنامج المحافظة على البيئة وتعليمهم مهارات التعامل مع المناطق البرية.

وفي الختام أصلي وأسلم على خير الأنام، وأستغفر الله -عز وجل- عما ورد في البحث من الخطأ أو النسيان، إنه سبحانه أكرم مسؤول وأعظم مأمول.

فهرس المراجع

أولا: القرآن الكريم.

ثانيًا: التفسير:

- مفاتيح الغيب للإمام فخر الدين محمد الرازي، ط: دار الفكر العربي سنة ١٩٨١.

ثالثًا: الحديث:

١- سنن أبي داود لسليمان بن الأشعث السجستاني، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط: دار الفكر - بيروت.

٢- سنن ابن ماجه للحافظ أبي عبد الله بن زيد القزويني، ط: الحلبي.

٣- سنن الترمذي «الجامع الصغير» لأبي عيسى بن عيسى بن سورة، ط: التراث العربي.

٤- السنن الكبرى للهيثمي، ط: دار الفكر - بيروت.

٥- صحيح البخاري لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ط: دار الكتب العلمية - بيروت.

٦- صحيح مسلم لأبي الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، ط: دار إحياء التراث العربي - بيروت.

٧- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد للهيثمي، ط: دار الكتاب العربي - بيروت.

٨- المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري، ط: دار الفكر - بيروت.

٩- المسند للإمام أحمد بن حنبل الشيباني، ط: دار صادر - بيروت.

١٠- المسند الجامع لأبي الفضل السيد أبو المعاطي النوري.

١١- المنتقى شرح موطأ الإمام مالك للباجي، ط: دار الكتاب العربي.

١٢- الموطأ للإمام مالك، ط: دار الشعب.

١٣- نصب الراية في تخريج أحاديث الهداية للزيلعي، ط: دار الفكر.

رابعًا: اللغة العربية والمعاجم.

١- لسان العرب لابن منظور، ط: دار صادر - بيروت.

٢- معجم لغة الفقهاء لمحمد قلعجي، ط: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع سنة ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

خامسًا: الفقه الإسلامي:

حنفي:

١- الأشباه والنظائر على مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان، للعلامة الشيخ زين العابدين بن إبراهيم بن نجيم المصري الحنفي، نشر مؤسسة الحلبي سنة ١٣٨٧هـ.

٢- حاشية ابن عابدين لمحمد أمين بن عابدين، ط: دار الفكر.

٣- المبسوط لشمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي، ط: دار المعرفة - بيروت.

مالكي:

١- بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد، ط: دار الفكر - بيروت.

٢- التاج والإكليل للمواق، مطبوع بهامش مواهب الجليل، ط: دار الفكر - بيروت، ط٢ سنة ١٩٧٨م.

شافعي:

١- الأشباه والنظائر للسيوطي.

٢- الأم للإمام الشافعي، ط: دار الفكر.

٤- مغني المحتاج للخطيب الشربيني، ط: الحلبي.

حنبلي:

١- كشاف القناع للبهوتي، ط: دار الفكر- بيروت، تحقيق: هلال مصيلحي مصطفى هلال.

٢- المغني لابن قدامة، تحقيق: عبد الله التركي، وعبد الفتاح الحلو، ط: هجر- القاهرة، ط٢ سنة ١٤١٠هـ.

شيعي:

١- شرائع الإسلام للحلي.

٢- الفقه على المذاهب الخمسة لمحمد جواد مغنية، ط: دار العلم- بيروت، سنة ١٩٧٧م.

سادسًا: كتب أخرى:

١- الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ط: دار الكتب العربية - بيروت.

٢- الإسلام والبيئة لمحمد مرسي، ط: أكاديمية نايف العربية للعلوم الأمنية سنة ١٤٢٠هـ سنة ١٩٩٩م.

٣- الإسلام والاقتصاد، د/ عبد الهادي النجار، ط: عالم المعرفة، الكويت.

٤- الاقتصاد الجزئي، لجر هولتن ولسن، ترجمة د/ سليمان العاني- نشر دار المريخ بالسعودية.

٥- البيئة والإنسان، د/ حسني طه نجم وآخرون، ط: دار البحوث العلمية بالكويت سنة ١٩٧٧م.

٦- البيئة في الإسلام، تأليف السيد علي بن السيد عبد الرحمن آل هاشم، بحث مقدم للمؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت الملكية بالأردن سنة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٧- البيئة في الكتاب والسنة المطهرة، تأليف السيد علي السيد عبد الرحمن آل هاشم، بحث مقدم للمؤتمر العام الخامس عشر لأكاديمية آل البيت بالأردن سنة ١٤٣١هـ ٢٠١٠م.

٨- البيئة والحفاظ عليها من منظور إسلامي، أ.د/ محمد بن يحيى بن حسن النجيم، بحث مقدم للدورة التاسعة عشرة لمنظمة المؤتمر الإسلامي بدولة الإمارات العربية المتحدة.

٩- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسبين، لابن عبد الرؤوف، نشر القاهرة سنة ١٩٥٥م.

١٠- حماية البيئة في الإسلام، الاتحاد العالمي المصون، ط: مطبعة الهيئة الملكية للجبيل وينبع، مدينة ينبع الصناعية السعودية.

١١- رعاية البيئة في شريعة الإسلام، للدكتور/ يوسف القرضاوي، ط: دار الشروق.

١٢- رعاية البيئة من التلوث، رؤية اقتصادية إسلامية، يوسف عبد الله العريني، ط: دار طويق- الرياض، سنة ١٤٢٩هـ ٢٠٠٨م.

١٣- رؤية الدين الإسلامي في الحفاظ على البيئة، د/ عبد الله شحاتة، ط: الأولى دار الشروق سنة ١٤٢١هـ ٢٠٠١م.

١٤- السياسة الشرعية لابن تيمية.

١٥- فتاوى اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء لأحمد عبد الرازق الدويش، نشر الرئاسة العامة للبحوث العلمية والإفتاء.

١٦- قانون حماية البيئة في ضوء الشريعة الإسلامية، لماجد الحلو، ط: دار المطبوعات الجامعية- الإسكندرية.

١٧- مجلة منبر الإسلام سنة ١٣٩٦هـ.

١٨- مشكلة البيئة من منظور إسلامي، مقال للدكتور مصطفى صالح باجو، منشور على موقع المجتمع المسجدي بشبكة الإنترنت.

١٩- مكافحة الأمراض السارية في الإنسان، صادر عن جمعية الصحة الأمريكية.

٢٠- من علوم الأرض الكونية، لعدنان الشريف، ط٢، دار العلم- بيروت، سنة ١٩٩٤م.

٢١- من القيم الإنسانية في الإسلام للدكتور/ محمد رجب بيومي.

٢٢- الموافقات للشاطبي ط: دار المعرفة- بيروت.

٢٣- هندسة النظام البيئي في القرآن لعبد العليم خضير، ط١، دار الحكمة سنة ١٩٩٤م - البحرين.

٢٤- نظرية التعسف في استعمال الحق في الفقه الإسلامي، د/ فتحي الدريني، ط٢، مؤسسة الرسالة- بيروت سنة ١٩٧٧م.

٢٥- نهاية الرتبة في طلب الحسبة للشيزري، نشر السيد الباز العربي- القاهرة سنة ١٩٤٦م.

المحتويات

المقدمة ١٠
التّمهيد: التعريف بالمصطلحات ذات الصلة بالموضوع ١٣
المبحث الأول: التعريف بالبيئة ومكوناتها وأثرها في الإنسان..... ١٣
المبحث الثاني: التعريف بالتلوث البيئي وصوره ١٥
المبحث الثالث: مفهوم التوازن البيئي ١٦
المبحث الرابع: معجزة الإسلام في التبصر المبكر بمشكلات البيئة ١٧
الفصل الأول: مشكلة تلوث البيئة المائية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي..... ١٨
المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة المائية ١٨
المبحث الثاني: سبل مواجهة مشكلة تلوث المياه في الفقه الإسلامي ١٩
الفصل الثاني: مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي..... ٢٢
المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة الجوية والهوائية . ٢٢
المبحث الثاني: سبل مواجهة تلوث البيئة الهوائية أو الجوية في الفقه الإسلامي..... ٢٣
الفصل الثالث: مشكلة تلوث البيئة الأرضية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي..... ٢٥
المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة الأرضية ٢٥
المبحث الثاني: سبل مواجهة تلوث البيئة الأرضية في الفقه الإسلامي ٢٦
الفصل الرابع: مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي ٢٨
المبحث الأول: مشكلة تلوث بيئة الكائنات الحيوانية. ٢٨
المبحث الثاني: سبل مواجهة تلوث البيئة الحيوانية في الفقه الإسلامي..... ٢٩
الفصل الخامس: مشكلة تلوث البيئة النباتية وسبل مواجهتها في الفقه الإسلامي..... ٣٠
المبحث الأول: مشكلة تلوث البيئة النباتية ٣٠
المبحث الثاني: سبل مواجهة مشكلة تلوث البيئة النباتية في الفقه الإسلامي..... ٣١
الفصل السادس: نماذج تطبيقية لحماية البيئة ٣٢
المبحث الأول: نماذج تطبيقية لحماية البيئة في الإسلام..... ٣٢
المبحث الثاني: نماذج تطبيقية لحماية البيئة في العصر الحاضر من قبل الجهات المختصة والموقف الإسلامي منها..... ٣٤
الخاتمة ٣٧
أولًا: النتائج ٣٧
ثانيًا: التوصيات..... ٣٨
فهرس المراجع ٣٩
فهرس الموضوعات ٤١